

المبحث الثاني

في مبدأ ظهور الاتجاهات المنحرفة في التفسير والعوامل التي أدت اليها .

عرفنا فيما تقدم كيف تدرج التفسير في مرحلتى الرواية والتدوين ، وعرفنا كيف انتهى التفسير المأثور الى حذف أسانيده وذكوره مجردا عنها ، وكيف انتهى التفسير العقلى الى اخضاعه لميول شخصية ، ومذاهب عقدية وغير عقدية .

ولاشك أن انتهاء التفسير المأثور الى حذف أسانيده وذكوره مجردا عنها ، فجع على المسلمين باب شر عظيم ، حيث مكن من تسرب الموضوعات والاسرائيليات الى التفسير ، فكثيرا ما وضع أصحاب المذاهب السياسية والعقدية ، وغيرهم من أصحاب الميول المختلفة والنزعات المنحرفة أقوالا في التفسير ونسبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو الى بعض من اشتهر بالتفسير من الصحابة ، ترويجا لمذاهبهم وتمكيننا لبدعهم وأهوائهم ، ثم جاء من بعدهم فنقلوها عنهم في تفاسيرهم - كما نقلوا غيرها من صحيح التفسير المأثور- من غير أن يتحروا صحتها ، وبدون ذكر أسانيدها ، فاغتر كثير من الناس بهذه التفاسير ، وظنوا كل ما فيها صحيحا ، كما ظنوا مادس على التفسير من الاسرائيليات صحيحا كذلك .

ولقد كان من الممكن تلافى هذا الخطر لو ذكرت هذه الروايات
بأسانيدها ، ولكن حذف الأسانيد - وللأسف - عمى علينا كل
شئ !!

وليت هؤلاء الذين حذفوا الأسانيد وعنوا بجمع شتات
الأقوال ، فعلوا كما فعل ابن جرير الطبرى ، من رواية كل قول
بأسناده ، فهو وان كان لم يتحر الصحة فيما يرويه ، فقد أبرأ ذمته
بذكر السند لكل رواية يرويها ، وكانوا يقولون : « من أسند لك
فقد حملك » وكانوا يرون أنهم متى ذكروا السند فقد خرجوا عن
العهد ، لأن أحوال الرجال كانت معروفة في العهد الأول ،
فكان الناس لا يعيهم معرفة قيمة المروى صحة وضعفا ، كما أن
أحوال الرجال دونت لنا بكل دقة ومهارة في كتب الرجال ،
ومصنفات الجرح والتعديل ، فلا يعيننا نحن أيضا أن نعرف قيمة
رجال السند ، ثم ننتهى من ذلك الى معرفة قيمة المروى عنهم .

ولا شك أيضا في أن انتهاء التفسير بالرأى ، الى اخضاعه لميول
شخصية ومذاهب عقدية وغير عقدية ، فتح على المسلمين باب
شر خطير ، ولج منه أعداء الاسلام الى ما يهدفون اليه من إفساد
عقائد المسلمين ، ودلف منه مبتدعة المسلمين الى ترويح بدعهم ،
واقتمحه أشباه المثقفين بنظراتهم الكليية ، وعقولهم العليية ، ثم
خرجوا على الناس بعبثهم وسخافاتهم التى يبرأ منها كتاب الله عز
وجل !!

ولو أن هؤلاء جميعا حين خاضوا فى تفسير القرآن الكريم ، لم
ينظروا إليه من خلال نزعاتهم وأهوائهم ، وراعوا قوانين التفسير
التي لا يجوز تخطيها ، مارأينا هذه الاتجاهات المنحرفة التي

لا تخضع إلا للمجرد الهوى والاستحسان .

وإذا أردنا أن نرجع الخطأ في التفسير بالرأى الى دوافعه وأسبابه
أمكنتنا أن نرد ذلك - في الغالب - الى عاملين اثنين :

العامل الأول : أن يعتقد المفسر معنى من المعانى ، ثم يريد أن
يحمل ألفاظ القرآن على ذلك المعنى الذى يعتقدده .

العامل الثانى : أن يفسر القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده
بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب ، وذلك بدون نظر الى
المتكلم بالقرآن ، والمنزل عليه ، والمخاطب به .

فالعامل الأول ، ملحوظ فيه مجرد المعنى الذى يعتقدده المفسر
من غير نظر الى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان .

والعامل الثانى ، ملحوظ فيه مجرد اللفظ ، وما يجوز أن يريد به
العربى من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به ، والمخاطب ،
وسياق الكلام .

والخطأ الذى يرجع إلى العامل الأول يقع على أربع صور :

الصورة الأولى : أن يكون المعنى الذى يريد المفسر نفيه أو
اثباته صواباً ، فمراعاة لهذا المعنى يحمل عليه لفظ القرآن مع أنه
لا يدل عليه ، ولا يراد منه ، وهو مع ذلك لا ينفى المعنى الظاهر
المراد وعلى هذا يكون الخطأ واقعا في الدليل لا في المدلول .

وهذه الصورة تنطبق على كثير من تفاسير الصوفية ، والوعاظ
الذين يفسرون القرآن بمعان صحيحة في ذاتها ، ولكنها غير
مرادة ، ومع ذلك فهم يقولون بظاهر المعنى ، وذلك مثل كثير مما

ذكره أبو عبدالرحمن السلمى فى حقائق التفسير ، فمثلا عندما تعوض لقله تعالى فى الآفة : ٦٦ من سورة النساء « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ».. الآفة ، نجده يقول ما نصه : اقتلوا أنفسكم بمخالفة هواها ، أو اخرجوا من دياركم : أى أخرجوا حب الدنيا من قلوبكم ... الخ^(١) .

الصورة الثانية : أن يكون المعنى الذى يريد المفسر نفيه أو اثباته صوابا ، فمراعاة لهذا المعنى يسلب لفظ القرآن ما يدل عليه ويراد به ، ويحمله على ما يريد به هو ، وعلى هذا يكون الخطأ واقعا فى الدليل لا فى المدلول أيضا .

وهذه الصورة تنطبق على تفاسير بعض الصوفية ، الذين يفسرون القرآن بمعان إشارية صحيحة فى حد ذاتها ، ومع ذلك فانهم يقولون : إن المعانى الظاهرة غير مرادة . وتفسير هؤلاء أقرب ما يكون الى تفسير الباطنية ، ومن ذلك ما فسر به سهل التسترى قوله تعالى فى الآفة : ٣٥ من سورة البقرة « ... ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » حيث يقول ما نصه : لم يرد الله معنى الأكل فى الحقيقة ، وإنما أراد معنى مساكنة الهمة لشيء هو غيره .. الخ^(٢) .

الصورة الثالثة : أن يكون المعنى الذى يريد المفسر نفيه أو اثباته خطأ ، فمراعاة لهذا المعنى يحمل عليه لفظ القرآن مع أنه لا يدل عليه ولا يراد منه ، وهو مع ذلك لا ينفى الظاهر المراد ، وعلى هذا يكون الخطأ واقعا فى الدليل والمدلول معا .

(١) تفسير السلمى ص ٤٩ . (٢) تفسير التسترى ص ١٦

وهذه الصورة تنطبق على ما ذكره بعض المتصوفة من المعاني الباطلة ، وذلك كالتفسير المبني على القول بوحدة الوجود ، كما جاء في التفسير المنسوب لابن عربي عندما عرض لقوله تعالى في الآية : ٨ من سورة المزمل : « واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً » حيث قال ما نصه : واذكر اسم ربك الذي هو أنت ، أى اعرف نفسك ولا تنسها فينسك الله ... الخ (٣) .

الصورة الرابعة : أن يكون المعنى الذى يريد المفسر فيه أو اثباته خطأ ، فمراعاة لهذا المعنى يسلب لفظ القرآن ما يدل عليه ويراد به ، ويحملة على ذلك الخطأ دون الظاهر المراد ، وعلى هذا يكون الخطأ فى الدليل والمدلول معا .

وهذه الصورة تنطبق على تفاسير أهل البدع والمذاهب الباطلة ، فتارة يلوون لفظ القرآن عن ظاهره المراد الى معنى ليس فى اللفظ أى دلالة عليه ، كتفسير بعض غلاة الشيعة « الجبت والطاغوت » بأبى بكر وعمر ، وتارة يحتالون على صرف اللفظ عن ظاهره الى معنى فيه تكلف غير مقبول ، وذلك اذا أحسوا اللفظ القرآنى يصادم مذهبهم الباطل ، كما فعل بعض المعتزلة ففسر لفظ « إلى » فى قوله تعالى فى الآيتين : ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة : « وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة » بالنعمة ، ذهاباً منه إلى أن « الى » واحد الآلاء بمعنى النعم ، فيكون المعنى : ناظرة نعمة ربها على التقديم والتأخير (٤) ، وذلك كله ليصرف الآية عما تدل عليه من رؤية الله عز وجل فى الآخرة .

(٣) التفسير المنسوب لابن عربي ج ٢ ص ٣٥٢ .

(٤) آمالى السيد المرتضى ج ٢ ص ٢٨ .

وأما الخطأ الذى يرجع إلى العامل الثانى فهو يقع على صورتين :

الصورة الأولى : أن يكون اللفظ محتملا للمعنى الذى ذكره المفسر لغة ، ولكنه غير مراد ، وذلك كاللفظ الذى يطلق فى اللغة على معنيين أو أكثر . والمراد منه واحد بعينه ، فىأتى المفسر فيحمله على معنى آخر من معانيه غير المعنى المراد ، وذلك كلفظ « أمة » فإنه يطلق على معان ، منها : الجماعة ، والطريقة المسلوكة فى الدين ، والرجل الجامع لصفات الخير ، فحمله على غير الطريقة المسلوكة فى الدين فى قوله تعالى فى الآية : ٢٢ من سورة الزخرف : « إنا وجدنا آباءنا على أمة » غير صحيح وان احتمله اللفظ لغة . ولفظ « العين » الذى يطلق على معان كثيرة منها العين الباصرة ، والذهب ، والجاسوس ، وعين الماء ، اذا حمل على معنى آخر غير عين الماء فى قوله تعالى فى الآية : ١٨ من سورة الإنسان : « عيناً فيها تسمى سلسيلا » يكون غير صحيح وان احتمله اللفظ لغة أيضا .

الصورة الثانية : أن يكون اللفظ موضوعا لمعنى بعينه ، ولكنه غير مراد فى الآية ، وانما المراد معنى آخر غير ما وضع له اللفظ بقرينة السياق مثلا ، فيخطئ المفسر فى تعيين المعنى المراد ، لأنه اكتفى بظاهر اللغة فشرح اللفظ على معناه الوضعى ، وذلك كتفسير لفظ « مبصرة » فى قوله تعالى فى الآية : ٥٩ من سورة الاسراء « وآتيناهم ثمود الناقة مبصرة . . . » بجعل مبصرة من

الإبصار بالعين على أنها حال من الناقه ، وهذا خلاف المراد ،
اذ المراد : آية واضحة على صدق نبوته^(٥) .

... وبعد فقد بينا كيف تدرج التفسير في مرحلة الرواية
ومرحلة التدوين ، وكيف انتهى به الأمر الى ظهور الاتجاهات
المنحرفة فيه ، وبيننا الدوافع التي دفعت ببعض المفسرين الى هذه
الاتجاهات ، ونرى بعد هذا أن نفرد كل لون من ألوان هذه
الاتجاهات بمقالة مستقلة نذكر فيها أسباب هذا الاتجاه ،
ونستعرض بعض أمثله ، ثم نعقب على هذه الأمثلة بدفعها وبيان
زيفها ، فنقول وبالله التوفيق :

(٥) انظر مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير ص ٢٠ - ٢٤ .

مع الإخباريين والقصاص

● الاتجاه المنحرف في التفسير للإخباريين والقصاص :

اشتمل القرآن الكريم على كثير من القصص : منه ما يتعلق بأخبار الأنبياء مع أهمهم ، ومنه ما يتعلق بأخبار الماضين ممن ليسوا بأنبياء ولا مرسلين ، كقصة أصحاب الكهف ، وقصة ذى القرنين ، وقصة الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها فقال : أنى يحيى هذه الله بعد موتها ...

وإذا نحن أجلنا النظر فى التوراة والانجيل نجد أنها قد اشتملت على كثير مما اشتمل عليه القرآن الكريم ، وبخاصة ما كان له تعلق بقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وذلك على اختلاف فى الاجمال والتفصيل : فالقرآن اذا عرض لقصة من قصص الأنبياء - مثلا - فإنه ينحو فيها ناحية يخالف بها منحنى التوراة والانجيل ، فنراه يقتصر على مواضع العظة ، ولا يتعرض لتفصيل جزئيات المسائل ، فلا يذكر تاريخ الوقائع ، ولا أسماء البلدان التى حصلت فيها ، كما أنه لا يذكر - فى الغالب - أسماء الأشخاص الذين جرت على أيديهم بعض الحوادث ، ولا يدخل فى تفاصيل الجزئيات ، بل يتخير من ذلك ما يمس جوهر الموضوع ، وما يتعلق بموضوع العبرة .

وإذا أخذنا موضوعا من الموضوعات التى اتفق فى ذكرها القرآن

والتوراة ، أو القرآن والانجيل ، وقارنا بين ما جاء في الكتابين
وجدنا اختلاف المسلك ظاهرا جليا .

فمثلا قصة آدم وابليلس ، ورد ذكرها في التوراة ، كما ورد ذكرها
في القرآن في مواضع متعددة ، أطولها ما ورد في سورة البقرة ،
وما ورد في سورة الأعراف ، وبالنظر في الآيات المتعلقة بهذه
القصة في هاتين السورتين وغيرهما من سور القرآن نجد أن القرآن
لم يتعرض لمكان الجنة ، ولا لنوع الشجرة التي نهى الله آدم
وزوجه عن الأكل منها ، ولا بين أن الشيطان تقمص حية ودخل
الجنة ليزل آدم ويغويه بالأكل من الشجرة ، كما لم يتعرض للبقعة
التي هبط إليها آدم وزوجه وأقاما بها بعد خروجها من الجنة . . .
الى آخر ما يتعلق بهذه القصة من تفاصيل .

ولكن نظرة واحدة يجليها الانسان في التوراة يبجد بعدها أنها قد
تعرضت لكل ذلك وأكثر منه ، فذكرت أن الجنة في عدن شرقا ،
وأن الشجرة التي نهى آدم وزوجه عنها كانت في وسط الجنة ، وأنها
شجرة الحياة ، وشجرة الخير والشر ، وأن الذي خاطب آدم
وحواء هو الحية ، وذكرت ما انتقم الله به من الحية التي تقمصها
ابليلس بأن جعلها تسعى على بطنها وتأكل التراب ، وما انتقم به
من حواء بتعبها هي ونسلها في حبلها . الى آخر ما ذكر مما يتعلق
بهذه القصة (١) .

وإذا نحن أجلنا النظر فيما جاء في الانجيل من قصص ورد
ذكره في القرآن ، وجدنا أن الانجيل يعنى بجزئيات لا يتعرض لها
القرآن ، فقصة ولادة عيسى عليه السلام لم يتعرض القرآن فيها

(١) العهد القديم ؛ الإصحاح الأول من سفر التكوين ص ٤ - ٥

لنسب عيسى مفضلا ، ولم يعين على جهة التحديد المكان الذي ولد فيه ، ولا تعرض لكيفية ولادته ، ولا لغير ذلك من الجزئيات التي عرض لها الانجيل بالتفصيل^(٢) .

ولما كانت النفس عادة تشوق الى معرفة تفاصيل الحوادث وجزئياتها ، وجدنا من المسلمين في عهد الصحابة من كان يرجع الى بعض من أسلم من أهل الكتاب ، كعبدالله بن سلام ، وكعب الأحبار يسألونهم عن بعض جزئيات هذه الحوادث ، ولكن بقدر ما يرون أنه موضح للقصة ، ومبين لما أجمله القرآن منها ، ومن غير أن يخرجوا عن دائرة الجواز التي حددها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « حدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار »^(٣) .
ويقوله : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : « آمنا بالله وما أنزل إلينا » .. الآية^(٤) .

وعلى هذا فان الصحابة اذا أخذوا عن أهل الكتاب ، كانوا يصدقونهم فيما يتفق مع شريعتنا ، وكانوا يكذبونهم فيما لا يتفق معها ، وكانوا يتوقفون فيما يحتمل الصدق والكذب فلا يقطعون بصدقه لاحتمال أن يكون كذبا ، ولا يقطعون بكذبه لاحتمال أن يكون صدقا ، كما كانوا لا يسألون عن الأشياء التي يشبه أن يكون السؤال عنها نوعا من اللهو والعبث ، كالسؤال عن لون كلب أهل الكهف ، وبعض البقرة الذي ضرب به قتيل بني اسرائيل ،

(٢) انظر : العهد الجديد : انجيل متى : الاصحاح الأول ص ١

(٣) البخارى فى باب : ما ذكر عن بنى اسرائيل .

(٤) البخارى فى باب : التفسير- والآية من سورة البقرة : ١٣٦

ومقدار سفينة نوح ، ونوع خشبها ، واسم الغلام الذى قتله الخضر . . . وغير ذلك مما يعد السؤال عنه قبيحا ومن قبيل تضييع الوقت في غير فائدة .

. . ولكن هل بقى التحفظ في رواية الاسرائيليات على ما كان عليه في عهد الصحابة ؟

. . لا ، فقد جاء عهد التابعين ، وفيه كثرت الروايات الاسرائيلية في التفسير ، ويرجع ذلك إلى كثرة من دخل من أهل الكتاب في الاسلام ، وميل نفوس القوم لسماع التفاصيل عما يشير اليه القرآن ، من أحداث يهودية ، أو نصرانية أو غيرها ، فظهرت في هذا العهد جماعة من المفسرين أرادوا أن يسدوا هذه الثغرات القائمة في التفسير - كما يظنون - بما هو موجود عند اليهود والنصارى فحشوا التفسير بكثير من القصص المتناقضة ، والروايات التى هى أقرب إلى الخرافة ، ومن هؤلاء : مقاتل بن سليمان المتوفى سنة ١٥٠ هـ والذى نسبه أبو حاتم إلى أنه استقى علومه بالقرآن من اليهود والنصارى وجعلها موافقة لما في كتبهم^(٥) .

ثم جاء بعد عصر التابعين من عظم شغفه بالاسرائيليات ، ونقل الأخبار وأفرط في ذلك ، حتى أصبح لا يرد قولاً ، ولا يتحرج من أن يلصق بالقرآن من الروايات والقصص مالا يتصوره عقل ، وما لا يجوز أن يفسر به كتاب الله .

ولقد استمر هذا الشغف بالاسرائيليات ، والولع بنقل الأخبار

(٥) وفيات الاعيان ج ٢ ص ٥٦٨

التي يعتبر الكثير منها نوعاً من الخرافة ، حتى وجدنا من كتب التفسير على اختلاف العصور ما هو مليء بهذا القصص على ما في بعضه من منافاة لعصمة الأنبياء ، الأمر الذي كاد يصد الناس عن النظر في هذه الكتب ، والذي جعلهم لا يثقون بما فيها من الروايات ولو كان صحيحاً .

ولعل أبرز من عرفناه يعنى بالاسرائيليات من المفسرين : أبو اسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٧ هـ في كتابه « الكشف والبيان عن تفسير القرآن » (٦) ، وعلاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن خليل الشيعي (٧) البغدادي المعروف بالخازن المتوفى سنة ٧٤١ هـ في كتابه « لباب التأويل في معاني التنزيل » .

كلا الرجلين يعنى في تفسيره - بصورة ظاهرة - بذكر الاسرائيليات ، وكلاهما ينقل الكثير منها على ما فيها من بعد عن الحقيقة ، وأحيانا يتعقبان بالنقد بعض ما يذكران من ذلك ، وأحيانا لا يكون منها نقد يكشف زيف ما يرويان ولو كان مخلاً بعصمة الأنبياء .

ولست أرى دافعاً دفع بهذين المفسرين الى حشو كتابيهما بهذه الروايات إلا حبهما للقصص ، وشغفهما برواية الاسرائيليات ولو كان فيها الأكاذيب .

(٦) هذا التفسير مخطوط ومنه أربعة أجزاء في مكتبة الأزهر ، تبدأ بأول القرآن وتنتهى عند آخر سورة الفرقان .

(٧) الشيعي - بالحاء المهملة - نسبة الى بلدة اسمها «شبيحة» من أعمال حلب

فالثعلبي : كان واعظاً وشأن الواعظ - في الغالب - أن يغلب عليه الجانب القصصي فيما يلقيه على الناس وفيما يكتب لهم ، ولقد لمسنا هذه الظاهرة في الثعلبي بصورة واضحة في كتابه « العرائس » الذي ألفه في قصص الأنبياء عليهم السلام .

والخازن : كان خازن كتب خانقاه السيمساطية بدمشق ، وقد لقب بالخازن من أجل ذلك . ومن يقوم على خزانة الكتب وله ولع بالتفسير ، لا بد أن يقرأ كثيراً فيما تحتم يديه من كتب التفسير ، ولا بد أن يعجب ببعض منها ، ويتأثر به فيما يحاول من كتابة التفسير ، ولقد رأينا الخازن قد تأثر إلى حد كبير ، بالتفسير التي لها عناية بالجانب القصصي ، فأكثر عنها النقل في تفسيره ، وكان أكثر ما تأثر به من ذلك تفسير الثعلبي ، الذي كثيراً ما يعزو إليه بعض ما يرويه من الاسرائيليات .

والخازن فوق هذا كان متصوفاً واعظاً ، ومن هنا أيضاً غلب على تفسيره اللون القصصي ، كما غلب على الثعلبي رحمه الله .

وإذا ما أردنا أن نسوق أمثلة من الجانب القصصي في تفسير الثعلبي ، وفي تفسير الخازن ، وجدنا أنفسنا أمام قصص كثيرة ، وأخبار طوال ، يميل القارئ من قراءتها ، ويسأم الكاتب من كتابتها ، فان اقتصرنا في ذكر الأمثلة على مثال واحد لكل منهما ، واختصرنا بعض العبارات ، فعذرى في ذلك أنى لا أريد أن أبلغ بالقارئ ولا بنفسى حد الملل والسامة .

وإليك مثلاً مما جاء في تفسير الثعلبي :

لما عرض لتفسير قوله تعالى في الآية : ١٠ من سورة الكهف :

« إذ أوى الفتية إلى الكهف . . . » روى عن السدى ووهب بن منبه وغيرهما رواية طويلة فيها ذكر أسماء هؤلاء الفتية واسم كلبهم ، وفيها حوار غريب بين الكلب والفتية حين تبعهم الكلب فحاولوا رده ، وأعجب ما فيها : أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم طلب من ربه أن يريه أصحاب الكهف فأجابه بأنه لن يراهم في دار الدنيا ، وأمره أن يرسل إليهم أربعة من خيار أصحابه ليبلغوهم رسالته .

يروى الثعلبي هذه الرواية فيقول فيها يروى عن السدى ووهب وغيرهما « . . . وأسمائهم - يريد الفتية - مكشلميثا : وهو كبيرهم ورئيسهم ، وامليخا : وهو أجملهم وأعبدهم وأنشطهم ، ومكشيثا ، ومرطوش ، ونوانس ، وكيد سظطنوس ، وكلبهم قظمير . . . » ثم قال : « قال كعب : مروا بكلب فنيح ، فطردوه مرارا ، فقام الكلب على رجله ، رافعا يديه إلى السماء كهيئة الداعي ، فنطق فقال : لا تخافوا مني أنا أحب أحياء الله ، فناموا حتى أحرسكم . . . » ثم ذكر من قصتهم ما ذكر الى أن قال : « وقيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم سأل الله أن يريه إياهم ، فقال : انك لن تراهم في دار الدنيا ، ولكن ابعث إليهم أربعة من خيار أصحابك ليبلغوهم رسالتك ، ويدعوهم الى الايمان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل : كيف أبعثهم ؟ فقال : ابسط كساءك ، وأجلس على طرف من أطرافه أبا بكر ، وعلى الآخر عمر ، وعلى الثالث عثمان وعلى الرابع على ابن أبي طالب ، ثم ادع الريح الرخاء المسخرة لسليمان ، فان الله تعالى يأمرها أن تطيعك ، ففعل ، فحملتهم الريح إلى باب

الكهف ، فقلعوا منه حجرا ، فحمل الكلب عليهم ، فلما رآهم حرك رأسه ويصبص بعينه ، وأوماً برأسه ان ادخلوا فدخلوا الكهف ، فقالوا : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فرد الله على الفتية أرواحهم ، فقاموا بأجمعهم ، وقالوا : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، فقالوا : معشر الفتية . . ان النبي محمد بن عبد الله يقرأ عليكم السلام فقالوا : وعلى محمد رسول الله السلام ما دامت السموات والأرض ، وعليكم ما أبلغتم ، وقبلوا دينه وأسلموا ، ثم قالوا : أقرئوا محمداً رسول الله منا السلام ، وأخذوا مضاجعهم ، وصاروا إلى رقدتهم . . . « أه (ج ٤ ص ١٢١ - ١٢٥) .

والعجيب أن الثعلبي يمر على هذه الرواية دون أن يتعقبها بكلمة تكذيب لها أو شك فيها ، ولست أرى إلا أنها رواية تحمل في طياتها دليل كذبها ، فما محمد عليه الصلاة والسلام بالشخص الذي يعذب فيسأل ربه أن يريه أصحاب الكهف ، ولو وقع منه سؤال لربه - كما في الرواية - فلم لا يجاب إلى طلبه ويؤمر بإرسال أربعة من صحابته اليهم ، فيرونهم رأى العين ؟ . . هل معنى هذا : أن محمداً صلى الله عليه وسلم هان على الله فحرمه من شيء تاقت نفسه اليه ولم يحرم منه بعض أصحابه ؟ ولم كان الأربعة الذين أرسلهم خصوص أبي بكر وعمر وعثمان وعلى وهم الخلفاء الأربعة ؟ أليس في ذلك روائح الكذب، وأمارت الاختلاف ؟ . ثم أليس في تسخير الريح لمحمد عليه الصلاة والسلام ما يتنافى مع ما جاء في القرآن من قول نبي الله سليمان عليه السلام : « رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، إنك أنت

الوهاب . فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب»^(٨) ؟ وما ثبت من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هم أن يربط شيطاناً بسارية المسجد ، حتى إذا أصبح الصبح يراه أصحابه ، فلما تذكر دعوة أخيه سليمان : « رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي » أطلقه.. أليس في كل ما ذكرت ما يكفي لرد هذه الرواية ، وأنها لا أساس لها من الصحة ؟ أعتقد أن فيها ذكرته ما يكفي لردّها وبيان بطلانها .

ثم إليك مثلاً مما جاء في تفسير الخازن :

لما عرض لتفسير قوله تعالى في الآيتين : ٨٣ ، ٨٤ من سورة الأنبياء : « وأيوب إذ نادى ربه أن مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضره، وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين » . نراه يروى عن وهب ابن منبه قصة طويلة لا يكاد يقرأها عقل ولا شرع فيقول :

« قال وهب بن منبه : كان أيوب رجلاً من الروم ، وهو أيوب ابن أموص بن نارخ بن روم بن عيص بن اسحاق بن ابراهيم . وكانت أمه من ولد لوط بن هاران ، وكان الله تعالى قد اصطفاه ونبأه وبسط له الدنيا ، وكانت له البثية من أرض البلقاء من أعمال خوارزم مع أرض الشام كلها سهلها وجبلها ، وكان له فيها من أصناف المال كله ، من الإبل والبقر والغنم والخيول والحمير ، ما لا يكون لرجل أفضل منه في العدد والكثرة ، وكان له خمسمائة فدان ، يتبعها خمسمائة عبد ، لكل عبد امرأة وولد ومال ، ويحمل له آلة كل فدان أتان ، لكل أتان من الولد اثنان أو

(٨) سورة ص : ٣٥ ، ٣٦ .

ثلاثة أو أربع أو خمس وفوق ذلك ، وكان الله تعالى قد أعطاه أهلا وولدا من رجال ونساء ، وكان برأ تقيا رحيميا بالمساكين ، يطعمهم ، ويكفل الأيتام والأرامل ، ويكرم الضيف ، ويبلغ ابن السبيل ، وكان شاكرا لأنعم الله ، مؤديا لحق الله ، قد امتنع من عدو الله إبليس أن يصيب منه ما يصيب من أهل الغنى من الغرة والغفلة والتشاغل عن أمر الله بما هو فيه من أمر الدنيا . وكان إبليس لا يحجب عن شيء من السموات ، وكان يقف فيهن حيثما أراد ، حتى رفع الله عيسى فحجب عن أربع ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم حجب عن السموات كلها ، إلا من استرق السمع ، فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب ، وذلك حين ذكره الله وأثنى عليه ، فأدرك إبليس الحسد والبغض ، فصعد سريعا حتى وقف من السماء حيث كان يقف ، وقال : إلهي نظرت في أمر عبدك أيوب فوجدته عبدا أنعمت عليه فشكرك ، وعافيته فحمدك ، ولو ابتليته بنزع ما أعطيته لحال عما هو عليه من شكرك وعبادتك ، ولخرج عن طاعتك ، قال الله تعالى : انطلق فقد سلطتك على ماله ، فانقض عدو الله حتى وقع على الأرض فجمع عفاريت الجن ومردة الشياطين ، وقال لهم : ماذا عندكم من القوة ؟ فقد سلطت على مال أيوب ، وهو المصيبة الفادحة ، والفتنة التي لا تصبر عليها الرجال . . ثم ذكر أقوالا غريبة في إفاء مال أيوب عقبها بقوله « فلما رأى إبليس أنه أفنى ماله ، ولم ينجح منه بشيء ، صعد سريعا حتى وقف الموقف الذي يقف فيه ، وسأل الله أن يسلطه على ولده ، فقال الله له : انطلق فقد سلطتك على ولده » . . وذكر ما كان من بلاء وعذاب وهلاك

وقع بولده ، وأن إبليس جاء الى أيوب بعد ذلك وقال له : « لو رأيت بنيك كيف عذبوا ، وكيف انقلبوا منكوسين على رؤوسهم ، تسيل دماؤهم وأدمغتهم ، ولو رأيت كيف شققت بطونهم فتناثرت أمعاؤهم لتقطع قلبك عليهم ، فبكى أيوب وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه وقال : يا ليت أمي لم تلدنني ، ثم لم يلبث أيوب أن تاب إلى ربه ، فوقف إبليس خاسئا ذليلا ، وسأل الله أن يسلمه على جسد أيوب ، فقال له عز وجل : انطلق فقد سلطتك على جسده . ولكن ليس لك سلطان على لسانه وقلبه وعقله .. فانقض عدو الله إبليس سريعا ، فوجد أيوب ساجدا ، فعجل قبل أن يرفع رأسه ، فأتاه من قبل وجهه فنفض في منخرية نفخة اشتعل منها جسده . فخرج من قرنه الى قدمه ثاليل مثل أليات الغنم ، ووقعت فيه حكة فحك بأظافره حتى سقطت كلها ، ثم حكها بالمسوح الخشن حتى قطعها ، ثم حكها بالفخارة والحجارة الخشنة حتى قرح لحمه وتقطع ، وتغير وانتن ، فأخرجته أهل القرية حتى جعلوه على كناسة لهم ، وجعلوا له عريشة ورفضه خلق الله كلهم غير امرأته » .. ثم ذكر كلاما طويلا في حوار أيوب من بعض خالصاته ، وفي تضرعه إلى الله أن يكشف عنه مابه من بلاء وضر ، وما كان من كلام الله له وكشفه الضر عنه ، ثم نقل عن الحسن « أن أيوب مكث مطروحا على كناسة لبني اسرائيل سبع سنين وأشهرا ، يختلف فيه الدود ، ولا يقربه أحد غير رحمة - اسم زوجته - ثم أن صبر أيوب على بلائه أعيا إبليس فاستشار أعوانه فأشاروا عليه أن يأتيه من قبل زوجته ، فانطلق إبليس حتى أتى رحمة امرأة أيوب فتمثل لها في صورة رجل

وقال لها : أين بعلك يا أمة الله ؟ قالت : هو ذاك يحك قروحه ،
ويتردد الديدان في جسده ، فأخذ يوسوس لها ويذكرها جمال أيوب
وشبابه ، وما هو فيه من الضر ، وأن ذلك لا ينقطع عنه أبدا ،
فصرخت فعلم أنها قد جزعت ، فأتاها بسخلة وقال : ليذبح لى
هذه أيوب ويبرأ ، فجاءت تصرخ : يا أيوب ، حتى متى يعذبك
ربك ؟ أين المال ؟ أين الولد ؟ أين الصديق ؟ أين لونك
الحسن ؟ أين جسمك الحسن ؟ اذبح هذه السخلة واسترح ،
فقال لها أيوب : أتاك عدو الله فنفض فيك ، وملك . . والله لئن
شفانى الله لأجلدك مائة جلدة ، أمرتنى أن أذبح لغير الله . .
وطردها . . إلى آخر القصة » (الخازن ج ٤ ص ٢٥٠ - ٢٥٤) .

والعجب أن الخازن ينتهى من هذه القصة ، ثم لا يعقبها بأية
كلمة تشعر بتكذيبها أو الشك فيها ، مع أنها بلا شك رواية
موضوعة مكذوبة ، بل ومدسوسة على القرآن الكريم ، ويمكن
دفعها عقلا ونقلا ، فالعقل لا يقبل بحال من الأحوال ، أن يكون
أى داعية إلى مبدأ أو عقيدة فيه كل هذه المنقرات ، التى تصد
الناس عنه وتباعد بينهم وبينه . والنقل صريح فى أن القادة لا بد
أن تكون لهم من الصفات البدنية ما يمتازون به ، وما يلقى عليهم
شيئا من المهابة . . وإلا فما معنى قوله تعالى فى الآية : ٢٤٧ من
سورة البقرة :

« وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ، قالوا
أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من
المال ، قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم
والجسم ، والله يؤتى ملكه من يشاء ، والله واسع عليم . »

وبعد ، فهذان مثالان من أمثلة الاتجاه المنحرف لبعض الإخباريين والقصاص ، سقناهما وبيننا ما فيها من زيف واختلاف .

وكلمة الحق أن هذه الإسرائيليات التي أخذها بعض المفسرين عن أهل الكتاب ، وشرحوا بها كتاب الله تعالى . كان لها أثر سيء في التفسير ، ذلك لأن الأمر لم يقف على ما كان عليه في عهد الصحابة من الالتزام بدائرة المباح من ذلك ، بل تعدى دائرة الجواز ، فرووا كل ما قيل لهم إن صدقا وإن كذبا ، بل ودخل هذا النوع من التفسير كثير من القصص الخيالي المخترع ، مما جعل الناظر في كتب التفسير التي هذا شأنها يكاد لا يقبل شيئا مما جاء فيها لاعتقاده أن الكل من واد واحد .

وليس من شك في أن هؤلاء الذين أكثروا من نقل الإسرائيليات وغيرها من الأخبار ، وضعوا الشوك في طريق المشتغلين بالتفسير ، وذهبوا بكثير من الأخبار الصحيحة بجانب ما روه من قصص مكذوب وأخبار لا تصح .

وليتنا نجد من بين علمائنا من ينشط الى تجريد كتب التفسير من هذه الإسرائيليات ويطهرها من كل ما دخل فيها من الروايات التي لا نصيب لها من الصحة حتى يستطيع الناظر في كتب التفسير أن يفهم كلام الله - سبحانه - فهما صحيحاً وبعيدا عن أكاذيب الرواة وخيالات القصاصين .

obeikandi.com

مع أصحاب المذاهب النحوية - ● الاتجاه المنحرف في التفسير لبعض أصحاب المذاهب النحوية :

قلنا فيما تقدم : ان علم التفسير دون ضمن ما دون من علوم مختلفة ، وقلنا : ان كل صاحب فن برع في فنه وألف في تفسير القرآن الكريم تأثر في تفسيره إلى حد كبير بفنه الذي برع فيه : فالمؤرخ تأثر بالتاريخ في تفسيره ، والفقيه تأثر بالفقه ، والبلاغي تأثر بالبلاغة ، والنحوي تأثر بالنحو . . . وهكذا كل من له عناية بعلم من العلوم ، نجده يتأثر بهذا العلم في تفسيره للقرآن ، ويتطرق إليه لأدنى مناسبة ، بل ربما يقحم بعض أبحاثه على التفسير ، لا لشيء إلا لمجرد الاستطراد .

وإذا كنا نعيب على أمثال هؤلاء أنهم كتبوا ما يمكن الاستغناء عن كتابته ، وشغلوا الناظر في تفاسيرهم بما استطردوا إليه من غير حاجة حتى كادوا يصرفون الناس عنها ، فالعيب كل العيب على بعض هؤلاء المفسرين الذين كانت لهم بالنحو عناية خاصة . وكانت لهم فيه مذاهب متبعة ، يتمسكون بها ولا يرون صحة ما سواها ، ثم يجدون في كتاب الله تعالى آية تقرأ بقراءة متواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا يسعهم إلا أن ينكروا هذه القراءة ، لأنهم لا يرونها تتمشي مع مذهبهم النحوي ، بل ولا يفقههم هذا الإنكار ، فيرمون من قرأ بها بأنه

لا يدرك ما في القرآن من حسن النظم وجزالته .

ومن هؤلاء الذين اتجهوا هذا الاتجاه المنحرف : الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ في تفسيره المعروف بالكشاف ، وابن عطية الأندلسي المتوفى سنة ٥٤٦ هـ في تفسيره « المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز »^(١) .

وأبرز مثال لهذا الاتجاه ما ذكره الزمخشري عند تفسيره لقوله تعالى في الآية : ١٣٧ من سورة الأنعام : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم . . . » ، فقد فسر هذه الآية على قراءة حفص التي يقرأ فيها الفعل « زين » على البناء للفاعل الذي هو شركاؤهم ، وفسرها على قراءة غيره التي يقرأ فيها الفعل « زين » على البناء للمفعول الذي هو القتل المضاف لأولادهم ، ورفع « شركاؤهم » باضمار فعل دل عليه « زين » كأنه قيل : من زينه ؟ فقيل : زينه شركاؤهم .

فسر الزمخشري الآية على هاتين القراءتين تفسيراً مقبولاً ، ثم قال ما نصه : « وأما قراءة ابن عامر : قتل أولادهم شركائهم ، برفع القتل ، ونصب الأولاد ، وجر الشركاء ، نحلى إضافة القتل إلى الشركاء ، والفصل بينهما بغير الظرف - وهو المفعول - فشيء لو كان في مكان الضرورات - وهو الشعر - لكان سمجاً مردوداً ، كما سمح ورد « زج القلوب أبي مزادة » فكيف به في الكلام المشور ؟ فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته ؟ . والذي حملة - يريد ابن عامر - على ذلك أنه رأى في بعض

(١) توجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية

المصاحف « شركائهم » مكتوبا بالياء ، ولو قرأ بجسر الأولاد والشركاء - لأن الأولاد شركاؤهم في أموالهم - لوجد في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب « أهـ (في الكشف ج ١ ص ٢٧٢) .

وابن عطية الأندلسي يقول عن قراءة ابن عامر - كما يذكر ذلك أبو حيان في تفسيره « البحر المحيط ج ٤ ص ٢٢٩ » : « وهذه قراءة ضعيفة في استعمال العرب ، وذلك أنه أضاف الفعل إلى الفاعل وهو الشركاء ، ثم فصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول ، ورؤساء العربية لا يميزون الفصل بالظرف في مثل هذا إلا في الشعر كقوله :

كما خط الكتاب بكف يوما
يهودى يقارب أو يزيل
فكيف بالمفعول في أفصح كلام ؟ »

والواقع أن رد هذه القراءة المروية عن ابن عامر ، مبنى على ما ذهب إليه جمهور البصريين من عدم جواز الفصل بين المضاف والمضاف إليه إلا بالنظر ولضرورة الشعر فقط .

ولا شك أن انكار هذه القراءة غير مقبول بالمرّة ، وهو انكار ندفعه ولا نقر عليه الزمخشري ومن وافقه ، ذلك لأن المسألة خلافية بين النحويين ، فمنهم من أجاز مثل هذا التركيب حتى في الكلام المرسل ولغير ضرورة - وهذا - كما يقول أبو حيان - هو الصحيح لوجوده في هذه القراءة المتواترة المنسوبة إلى العربي الصريح المحصن بن عامر ، الأخذ القرآن عن عثمان بن عفان

قبل أن يظهر اللحن في لسان العرب ، ولوجودها أيضا في لسان العرب في عدة أبيات .

ولقد سخر أبو حيان من الزمخشري لإنكاره قراءة ابن عامر فقال ما نصه : « وعجب لأعجمي ضعيف في النحو يرد على عربي صريح محض قراءة متواترة موجود نظيرها في لسان العرب في غير من بيت ، وأعجب لسوء ظن هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تحيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله شرقا وغربا ، وقد اعتمد المسلمون على نقلهم لضبطهم ومعرفتهم وديانتهم » أهـ (من البحر المحيط ج ٤ ص ٢٣٠) .

كذلك وجدنا ابن المنير السكندري في كتابه الانتصاب الموجود بهامش الكشاف ، يعقب على كلام الزمخشري فيقول « لقد ركب المصنف في هذا الفصل متن عمياء ، وتاه في تيهاء ، وأنا أبرأ إلى الله وأبرأ حملة كتابه ، وحفظة كلامه عما رماههم به ، فانه تخيل أن القراء أئمة الوجوه السبعة اختار كل منهم حرفا فأقرأ به اجتهادا لا نقلا وسماعا ، فلذلك غلط ابن عامر في قراءته هذه » . ثم ذكر ما قاله الزمخشري في تخطيء ابن عامر وعقب عليه بقوله : « وهذا - كما ترى - ظن من الزمخشري أن ابن عامر قرأ قراءته هذه رأيا وكان الصواب خلافه والفصيح سواه ، ولم يعلم الزمخشري أن هذه القراءة بنصب الأولاد ، والفصل بين المضاف والمضاف اليه بها يعلم ضرورة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأها على جبريل كما أنزلها عليه كذلك ، ثم تلاها النبي صلى الله عليه وسلم على عدد التواتر من الأئمة ، ولم يزل عدد التواتر

يتنقلونها ويقرأون بها خلفاً عن سلف إلى أن انتهت إلى ابن عامر ،
فقرأها أيضاً كما سمعها ، فهذا معتقد أهل الحق في جميع الوجوه
السبعة أنها متواترة جملة وتفصيلاً عن أفصح من نطق بالضاد صلى
الله عليه وسلم ، فإذا علمت العقيدة الصحيحة فلا مبالاة بعدها
بقول الزمخشري ، ولا بقول أمثاله عن لحن ابن عامر . . ثم قال
« ان الزمخشري ما حمله على هذا الخيال إلا التعالى في اعتقاد
إطراد الأقيسة النحوية فظنها قطعية حتى يرد ما خالفها » . . ثم
ساق ابن المنير أمثلة كثيرة على تأييد قراءة ابن عامر عقبها بقوله
« وليس غرضنا تصحيح القراءة بقواعد العربية ، بل تصحيح
قواعد العربية بالقراءة » أهـ (من الانتصاف على الكشاف ج ١
ص ٤٧١ - ٤٧٢) .

هذا ، وفي كتاب الكشاف مواقف كثيرة للزمخشري ينكر فيها
بعض ما ثبت من قراءات متواترة ، متأثراً في ذلك بمذهبه
النحوي ، وما كان للزمخشري ولا لغيره أن يحكم مذهب النحوي
في كتاب الله ، فكتاب الله هو الأصل الذي يرجع إليه ، وهو
الحجة التي تقضى على كل ما يجرى من خلاف بين النحاة .



● الاتجاه المنحرف في التفسير لبعض من يجهلون قواعد العربية :

من الناس فريق تكلموا في تفسير القرآن ، وكتبوا فيه من غير
أن تكون لهم دراية تامة بقواعد اللغة العربية وأصولها ، ولا بمبدأ
اشتقاق الكلمات وكيفية تصريفها ، ومن هنا كان لهم في تفسير
القرآن الكريم اتجاه منحرف يخرج باللفظ القرآني عن معناه

اللغوى الذى وضع له الى معنى آخر غير مراد به حقيقة أو مجازاً .
ولم نقف لأصحاب هذا الاتجاه على مؤلفات فى التفسير ، وكل
ما وجدناه لهم أقوال نقلها عنهم بعض المفسرين فى تفاسيرهم أو
مصنفاتهم التى تكلموا فيها عن التفسير .

فمن ذلك ما نقله ابن قتيبة عن بعض المعتزلة فى تفسير قوله
تعالى :

« وسع كرسية السموات والأرض »^(٣) أن معناه : وسع علمه
.. وأنه ساق على ذلك شاهدا لا يعرف وهو قول الشاعر :

* ولا يكرسىء علم الله مخلوق *

قال ابن قتيبة : « كأنه عندهم : ولا يعلم علم الله مخلوق ،
والكرسى غير مهموز ، ويكرسىء مهموز » . ثم بين ابن قتيبة
أن الذى دفعهم إلى هذا الاتجاه فى فهم اللفظ والخروج به عن
معناه ، أنهم يستوحشون أن يجعلوا لله تعالى كرسيًا أو سريرًا ،
ويجعلون العرش شيئًا آخر ، ثم دفع هذا بأن العرب لا تعرف من
العرش إلا السرير وما عرش من السقف والآبار . . وساق على
ذلك الأدلة ، من القرآن والشعر العربى القديم .

ومما نقله ابن قتيبة أيضا عن بعض المعتزلة فى تفسير قوله
تعالى : « وعصى آدم ربه فغوى »^(٤) أن معنى غوى : أتخم من
أكل الشجرة .

(٣) طه : ١٢١ .

(٤) البقرة : ٢٥٥

ونحن نعرف أن الذى حملهم على هذا التفسير إنما هو الفرار من نسبة الغواية إلى آدم عليه السلام ، وغفلوا عن أن أكل آدم من الشجرة إنما كان عن نسيان كما قال سبحانه : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما »^(٥) والناسى لا يكون غاويا بالمعنى الذى فهموه وتحاشوه بهذا التأويل .

ولقد دفع ابن قتيبة هذا الاتجاه فى تفسيرهم لكلمة « غوى » وأبطله بالاحتكام إلى أصول اللغة العربية فقال : « انهم ذهبوا إلى قول العرب : « غوى الفصيل يغوى غوى » ، إذا أكثر من شرب اللبن حتى يشم ، وذلك غوى يغوى غياً . وهو من البشم غوى يغوى غوى » .

كذلك نقل ابن قتيبة عن بعض المعتزلة : أنهم فسروا قوله تعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس . . »^(٦) فقالوا : ذرأنا لجهنم : أى ألقينا فيها .

وظاهر أن الذى حملهم على هذا التفسير إنما هو مذهبهم فى أن الله لا يخلق الهداية والضلال ، وأنه لم يخلق خلقا للنار وخلقاً للجنة .

وقد احتكم ابن قتيبة إلى أصول اللغة ، ورد عليهم تأويلهم هذا فقال : « إنهم ذهبوا إلى قول الناس : ذرته الريح ، ولا يجوز أن يكون ذرأنا من ذرته الريح ، لأن ذرأنا مهموز ، وذرته الريح تذرؤه غير مهموز » . قال : « ولا يجوز أيضا أن نجعله من أذرته

(٥) الأعراف : ١٧٩ .

(٦) طه : ١١٥ .

الدابة عن ظهرها : أى ألقته ، لأن ذلك من « ذرات » تقدير فعلت بالهمز ، وهذا من أذريت تقدير أفعلت بلا همز» (٦) .

ومن الأمثلة التى ترجع إلى الجهل بتصريف الكلمة ، ما نقله الزمخشري فى الكشاف عن بعض أصحاب هذا الاتجاه عند تفسيره لقوله تعالى : « يوم ندعوا كل أناس بإمامهم » (٧) وذلك حيث يقول : « ومن بدع التفاسير : أن الامام جمع أم ، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم ، وأن الحكمة فى الدعاء بالأمهات دون الآباء ، رعاية حق عيسى عليه السلام ، وإظهار شرف الحسن والحسين ، وألا يفتضح أولاد الزنا » .

ولقد أثار هذا التفسير سخرية الزمخشري من قائله ، فقال معقبا عليه :

« وليت شعري أيها أبداع ، أصحة لفظه ؟ أم بهاء حكمته ؟ والواقع أن الزمخشري على حق حينما وصف هذا القول بأنه من بدع التفاسير ، لأنه غلط بين ، دفع جهل قائله بالتصريف ، فإن أمأ لا يجمع على إمام ، وإنما يجمع على أمهات ، كما أن ما ذكر من حكمة دعت إلى هذا التفسير ، لا تعدو أن تكون من قبيل معتقدات العامة التى لا يجوز تحكيمها فى فهم كتاب الله عز وجل .

(٦) انظر : مقدمة تأويل مختلف الحديث لابن تيمية .

(٧) الأسراء : ٧١

مع المعتزلة والشيعة

● الاتجاه المنحرف في التفسير للمعتزلة :

لما ظهرت المذاهب الدينية تأثر التفسير بها إلى حد كبير ، ذلك لأن القرآن الكريم كان هو المرجع الأول الذي يقصد إليه أصحاب المذاهب المختلفة - من المسلمين - ليأخذ كل منه ما يشهد لمذهبه ، ولو بطريق اخضاع النص القرآني له ، وقسره على موافقة رأيه وهواه ، وتأويل ما يصادمه من ذلك تأويلاً لا ينافي مذهبه ولا يعارض عقيدته .

ولقد استفحل الأمر الى حد جعل أصحاب المذاهب والأهواء يتسعون في حماية مذاهبهم وأهوائهم ، والترويج لها في غير محيطهم ، بما أخرجوه للناس من تفاسير حملوا فيها كلام الله - سبحانه - على وفق أهوائهم ، ومقتضى نزعاتهم ونحلهم .

وكانت فرقة المعتزلة من بين هذه الفرق التي تأولت كثيراً من آيات القرآن على غير تأويلها ، واتجهت بالكثير من نصوصه اتجاهها منحرفاً ، من أجل خدمة مبادئها التي تدين بها .

وإذا ذهبنا نستعرض ما كتبه المفسرون من المعتزلة في تفاسيرهم ، خرجنا منها بجملة كثيرة من هذه التأويلات ، التي نخدم أصولهم الخمسة التي يجمعون عليها ، وهي : التوحيد ، والعدل ، والوعداء والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر

مزوف والنهي عن المنكر .

ويكفى أن نعرض بعض الأمثلة ، من تأويلات المعتزلة التي نظينا صورة واضحة على المهارة الفائقة التي يلوون بها الآية الى جانبهم ، ويصرفونها عن أن تكون دليلا لخصومهم .

فمن ذلك : أنهم فسروا قوله تعالى في الآيتين : ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة : « وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة » بما يتمشى مع مذهبهم الذي ينفي جواز رؤية الله تعالى ، فقالوا : « اعلم بأن أصحابنا قد اعتمدوا في إبطال ما ظنه أصحاب الرؤية في قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة » على وجوه معروفة ، لأنهم بينوا أن النظر ليس يفيد الرؤية ولا الرؤية من أحد احتمالاته ودللوا على أن النظر ينقسم إلى أقسام كثيرة ، منها : تقليب الحدقة الصحيحة في جهة المرئي طلبا للرؤية . ومنها : النظر وهو الانتظار . ومنها : النظر الذي هو التعطف والرحمة . ومنها : النظر الذي هو الفكر والتأمل . وقالوا : إذا لم يكن في أقسام النظر الرؤية لم يكن للقوم بظاهاها تعلق ، واحتجنا جميعا إلى طلب تأويل الآية من جهة غير الرؤية . وتأولها بعضهم على الانتظار للثواب وإن كان المنتظر في الحقيقة محذوفا ، والمنتظر منه مذكورا على عادة للعرب معروفة .

وذهب بعضهم في صرف الآية عن مذهب أهل السنة في الرؤية ، إلى وجه آخر يصح الاعتماد عليه ، سواء أكان النظر المذكور في الآية هو الانتظار بالقلب ، أم الرؤية بالعين ، وهو أن يحمل قوله تعالى : « إلى ربها » إلى أنه أراد نعمة ربها ، لأن الآلاء : النعم ، وعليه فيكون التقدير : منتظرة ، أو ناظرة نعمة

رهباً . واستشهد على ذلك بقول أعشى بكر بن وائل :

أبيض لا يرهب الهزل ولا

يقطع رحماً ولا يخون آلاء

« أى أنه لا يخون نعمة » أهـ (من أمالي الشريف المرتضى ج ١

ص ٢٨ - ٢٩) .

وذهب الزمخشري - وهو من رؤوس المعتزلة - في تفسيره إلى أن النظر في الآية معناه التوقع والرجاء ، فهو من قبيل قول الناس : أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي ، تريد معنى التوقع والرجاء ، قال : ومنه قول القائل :

وإذا نظرت إليك من ملك

والبحر دونك زدتنى نعماً

وعلى هذا فمعنى الآية - كما يقول - أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربه ، كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه . أهـ (من الكشف ج ٢ ص ٥٠٩) .

والناظر في تأويلات المعتزلة لهذه الآية يرى أنهم قد صرفوا لفظ « ناظرة » عن احتمال أن يراد به رؤية العين ، أو أنهم أبقوه على احتمال معنى الرؤية بالعين ، ولكنهم استعملوا مهارتهم اللغوية فصرفوا لفظ « إلى » عن الحرفية إلى الإسمية ، وكل هذه المحاولات غير سليمة ، فإن تأويل النظر بمعنى الانتظار مدفوع بأنه بهذا المعنى لا يتعدى بـ « إلى » ، بل يتعدى « بنفسه » ، وبأنه لا يسند إلى الوجه ، فلا يقال : وجه فلان منتظر . وحمله على

توقع النعمة والكرامة من الله تكلف ظاهر ، وهو يؤدي إلى معنى الانتظار ، والانتظار لا يساعده المقام لأنه لا نعمة فيه كما يقول الألوسي . وصرف « إلى » عن الحرفية إلى الإسمية تكلف ظاهر ، وفيه من البعد ما فيه . . . ثم إن آيات الرؤية في مواضعها وسياقاتها ، لا يفهم منها إلا أن المراد الرؤية البصرية ، مع تنزيه الله عما لا يليق بجلاله من الاحاطة به وكونه في مكان . . . وغير ذلك مما يفضى إلى التشبيه .

على أن مذهب أهل السنة ، قد صرحت به الأحاديث الصحيحة التي رواها البخارى ومسلم وغيرهما ، ولا نريد أن نطيل بذكر أدلة أهل السنة على مذهبهم في الرؤية ، وإبطال مذهب المعتزلة فقد تناولت كتب العقائد هذا الموضوع بتوسع ، والرجوع إليها سهل ميسور .

ومن أمثلة الاتجاه المنحرف للمعتزلة في التفسير - أيضا - أنهم لما عرضوا لتفسير قوله تعالى في الآية : ١٦٤ من سورة النساء : « وكلم الله موسى تكليما » ووجدوا أنها تعارض مذهبهم في صفة الكلام لله تعالى ، حيث جاء المصدر مؤكدا للفعل ، رافعا لاحتمال المجاز ، بادروا الى تحويل هذا النص إلى ما يتفق ومذهبهم ، فقرأوه هكذا : « وكلم الله موسى تكليما » بنصب لفظ الجلالة على أنه مفعول ، ورفع موسى على أنه فاعل . وبعض المعتزلة يبقى النص القرآنى على قراءته المتواترة ، ولكنه يحمله على معنى بعيد حتى لا يبقى مصادما لمذهبه فيقول : ان كلم من « الكلم » بمعنى الجرح ، فالمعنى : وجوح الله موسى بأظفار المحن

ومخالف الفتن ، وهذا ليفر من ظاهر النظم الذى يصادم عقيدته
ومخالف مذهبه .

هذا الذى ذكرناه عرض له الزمخشري فى تفسيره (ج ١ ص
٣٩٧ - ٣٩٨) ، وقد نسب القول الأول إلى بعض شيوخ المعتزلة
ولم يعقب عليه ، كأنه ارتضاه وصوبه ، والواقع أنه قول
لا يرضاه منصف ، ولا يصوبه إلا متحيز لإخوانه فى
المذاهب ، فالقراءة التى فيها « لفظ الجلالة » مرفوع على أنه
الفاعل ، و« موسى » منصوب على أنه المفعول هى القراءة
المتواترة ، ولا يقول منصف بترك القراءة المتواترة والأخذ بقراءة لم
تبلغ حد التواتر ، بل ولا تعرف لها سنداً صحيحاً إلى رسول
الله ، صلى الله عليه وسلم .

والقول الثانى عدول عن المعنى المتبادر من اللفظ ، ولا يساعده
السياق ، ولهذا نرى الزمخشري - على اعتزاله - يستسخف هذا
الرأى ، ويصفه بأنه من بدع التفاسير ، ويعقب ابن المنير على قول
الزمخشري فىقول : « وصدق الزمخشري وأنصف ، انه لمن بدع
التفاسير التى ينبو عنها الفهم ، ولا يبين بها إلا الوهم ، والله
الموفق » .

ومن أمثلة الاتجاه المنحرف للمعتزلة فى التفسير - أيضاً -
ما ذهب إليه القاضى عبد الجبار فى كتابه : تنزيه القرآن عن
المطاعن (ص ١٤٠) عندما عرض لقوله تعالى فى الآية : ١٧٨ من
سورة الأعراف : « من يهد الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فأولئك
هم الخاسرون » فىقول مانصه : « وربما قيل فى قوله تعالى :

« من يهد الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون »
ليس ذلك يدل على أنه يخلق الهدى والضلال ؟ .

وجوابنا : ان المراد : « من يهد الله إلى الجنة والثواب فهو
المهتدى في الدنيا ، ومن يضلل عن الثواب إلى العقاب فأولئك
هم الخاسرون في الدنيا ، وسبيل ذلك أن يكون بعثا من الله تعالى
على الطاعة ، وكذلك قوله تعالى : « من يضلل الله فلا هادي له »^(١)
المراد من يضلله عن الثواب في الآخرة فلا هادي له إليه ، وإن
كنا قد أرحنا العلة ، وسهلنا السبيل إلى الطاعة » اهـ .

وليس من شك في أن القاضي عبدالجبار ، مادفعه إلى هذا
الاتجاه المنحرف في تأويل الآية إلا أنه اعتقد - كبقية المعتزلة - أن
الله تعالى لا يخلق الهدى ولا الضلال ، وأنها من جملة مخلوقات
العباد ، وهذا بلا ريب اعتقاد فاسد ، يدفعه قول الله تعالى :
« الله خالق كل شيء »^(٢) .

على أن التأويل الذي تأوله القاضي عبدالجبار - على ما فيه من
تكلف ظاهر - تأويل منكوس ، حيث جعل الهداية إلى الثواب في
الآخرة ، وسيلة الهداية إلى الطاعة في الدنيا ، وجعل الإضلال
عن الثواب في الآخرة وسيلة إلى الخسران في الدنيا ، والترتيب
الطبيعي عكس ذلك .

ولا أريد أن أستقصي ما للمعتزلة من تأويلات منحرفة ،

(٢) الزمر : ٦٢ .

(١) الأعراف : ١٨٦ .

ويكفى من يريد الاطلاع على الكثير في ذلك ، أن يقرأ كشف الزمخشري ، وتنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبدالجبار ، وغيرهما من تفاسير المعتزلة ، ليقف على ما لهم من تأويلات يجب أن ينزه عنها كتاب الله عز وجل .

● الاتجاه المنحرف في التفسير للشيعة (الامامية الاثني عشرية) :

إذا أجلنا النظر في المذهب الشيعي ، وجدنا أصحابه لم يسلموا من التفرق والانقسام في الرأي والعقيدة ، فبينما نجد الغلاة الذين رفعوا علياً إلى مرتبة الألوهية فكفروا ، نجد المعتدلين الذين يرون أن علياً أفضل من غيره من الصحابة ، وأنه أحق بالولاية وأولى بها من غيره فحسب ، ونجد من يقف موقفاً وسطاً بين هؤلاء وهؤلاء ، فلا هو يؤله علياً ، ولا هو يرى أنه بشر يخطيء ويصيب ، بل يرى أنه معصوم ، وأنه الخليفة بعد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

وكان طبيعياً - وكل حزب من أحزاب الشيعة يتسبب الى الاسلام ويعترف بالقرآن ولو في الجملة^(٣) - أن يبحث كل عن مستند يستند إليه من القرآن الكريم ، ويحرص كل الحرص على أن يكون القرآن شاهداً له لا عليه ، فما وجدته من الآيات القرآنية يمكن أن يكون - في نظره - دليلاً على مذهبه تمسك به ، وما وجدته مخالفاً لمذهبه ، حاول بكل ما يستطيع أن يجعله موافقاً له ، أو على

(٣) قلنا : « ولو في الجملة » ، لأن أكثر الإمامية الاثني عشرية يقولون بأن القرآن وقع فيه التحريف بالزيادة والنقصان ، وهو قول باطل من أساسه .

الأقل غير معارض ، ولو أدى ذلك إلى الخروج بالنص القرآني عن معناه الذي سبق من أجله .

وللشيعة على اختلاف مذاهبها آثار في تفسير القرآن الكريم ولكن أكثرها أثراً فرقة الإمامية الإثني عشرية ، وهم الذين يقولون بأن النبي صلى الله عليه وسلم نص على إمامة علي من بعده وأن الإمامة انتقلت من علي إلى ابنه الحسن بالوصية من أبيه ، ثم إلى الحسين ، ثم إلى ابنه علي زين العابدين ، ثم إلى ابنه محمد الباقر ، ثم إلى ابنه جعفر الصادق ، ثم إلى ابنه موسى الكاظم ، ثم إلى ابنه علي الرضا ، ثم إلى ابنه محمد الجواد ، ثم إلى ابنه علي الهادي ، ثم إلى ابنه الحسن العسكري ، ثم إلى ابنه محمد المهدي المنتظر ، وهو الإمام الثاني عشر ، ويزعمون أنه دخل سرداباً في دار أبيه بسر من رأى وأنه سيخرج في آخر الزمان ليملاً الدنيا عدلاً وأماناً ، كما ملئت ظلماً وخوفاً .

وهؤلاء قد جاوزوا الحد في تقديسهم للأئمة ، فزعموا أن الإمام له صلة روحية بالله كصلة الأنبياء . وقالوا : إن الإيمان بالإمام جزء من الإيمان بالله ، وأن من مات غير معتقد بالإمام ، فهو ميت على الكفر .

وللإمامية الإثني عشرية تعاليم ، أشهرها : العصمة ، والمهدية ، والرجعة ، والتقية .

أما العصمة : فيقصدون بها عصمة أئمتهم من الصغائر والكبائر ، ولا يجوز عليهم شيء من الخطأ أو النسيان .

وأما المهدية : فيقصدون منها الإمام المهدي المنتظر ، الذي

اختفى في سرداب سامرا ، والذي سيخرج في آخر الزمان ليملأ الأرض عدلا وأمنا .

وأما الرجعة : فهي عقيدة لازمة لفكرة المهديه ، ومعناها : أنه بعد ظهور المهدي المنتظر ، يرجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى الدنيا ، ويرجع على ، وسائر الأئمة الإثني عشر ، كما يرجع خصومهم كأبي بكر وعمر ، فيقتصن للأئمة من خصومهم ، ثم يموتون جميعا ، ثم يحيون يوم القيامة .

وأما التقية : فمعناها المداراة والمصانعة ، وهي مبدأ أساسي عندهم ، وجزء من الدين ، يدعون لإمامهم المخفى ، ويظهرون الطاعة لصاحب السلطان ، فإذا قويت شوكتهم أعلنوها ثورة مسلحة في وجه الدولة الظالمة .

وإذا تتبعنا تراث الإمامية الإثني عشرية في التفسير ، وجدنا لهم فيها وصفات كثيرة . . دونت قديما وحديثا ، وكلها يدور حول تركيز عقيدتهم ، مع اختلاف بينها في الغلو والاعتدال .

ولأجل أن نوضح مدى تأثير عقيدة الإمامية الإثني عشرية في اتجاههم في التفسير ، ونعرف مدى انحراف هذا الاتجاه عن النهج القويم لفهم كتاب الله تعالى ، نذكر بعض الأمثلة من تفاسيرهم ، مع بيان الدوافع التي دفعت بهم إلى هذا النحو في التفسير ، ثم نبين بطلان ما ذهبوا إليه من ذلك .

فمثلا في كتاب تفسير القرآن للسيد عبد الله العلوي المتوفى سنة ١١٨٨ هـ نجده عندما يعرض للآية : ٥٥ في سورة المائدة : «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة

ويؤتون الزكاة وهم راعون» يقول مانصه :

« يذكر أنها نزلت في علي ، عليه السلام حين سأله سائل وهو راع في صلاته ، فأوماً إليه بخنصره فأخذ خاتمه منها » . . ثم يقول « وتدل - يعنى الآية - على إمامته دون سواه ، للحصر ، وعدم اتصاف غيره بهذه الصفات ، وعبر عنه بصيغة الجمع تعظيماً ، أو لدخول أولاده الطاهرين » اهـ (ص ٢) .

وفي كتاب البرهان في تفسير القرآن للبحراني المتوفى سنة ١١٠٧ هـ نجده حينها يفسر الآية السابقة يقول ما نصه « ان رهطاً من اليهود أسلموا ، منهم : عبدالله بن سلام ، وأسيد بن ثعلبة ، وابن يامين ، وابن سوريا ، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا نبي الله ان موسى أوصى إلى يوشع بن نون ، فمن وصيك يا رسول الله ؟ ومن ولينا من بعدك ؟ فنزلت هذه الآية : « إنما وليكم الله ورسوله » الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قوموا » فقاموا وأتوا المسجد ، فإذا سائل خارج فقال : « يا سائل ، ما أعطاك أحد شيئاً » ؟ قال : نعم هذا الخاتم ، قال : « من أعطاكه » ؟ قال : أعطانيه ذلك الرجل الذي يصلى ، قال : « على أى حال أعطاك » ؟ قال : راعك ، فكبر النبي وكبر أهل المسجد ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « على بن أبي طالب وليكم بعدى » قالوا : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ، ويعلى بن أبي طالب ولياً ، فأنزل الله عز وجل : « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون »^(٤) فروى أن عمر بن الخطاب قال : والله لقد

(٤) المائدة : ٥٦ .

تصدقت بأربعين خاتماً وأنا راعك لينزل الله في ما نزل في علي بن أبي طالب عليه السلام فما نزل» اهـ (ص ٤٨٠).

وعندما يعرض البحراني لقوله تعالى في الآيتين : ٨ ، ٩ من سورة الذاريات : « إنكم لفي قول مختلف . يؤفك عنه من أفك » يروي عن أبي جعفر أنه قال : « إنكم لفي قول مختلف » اختلف في ولاية هذه الأمة ، فمن استقام على ولاية علي دخل الجنة ، ومن خالف ولاية علي دخل النار . وأما قوله : « يؤفك عنه من أفك » قال : يعني علياً ، من أفك عن ولايته أفك عن الجنة ، فذلك قوله : « يؤفك عنه من أفك » اهـ (ص ٢٣١) .

وفي تفسير ابراهيم بن فرات الكوفي أحد علماء الإمامية الإثني عشرية في القرن الثالث الهجري ، تجده يروي في تفسير قوله تعالى : « عم يتساءلون . عن النبا العظيم . الذي هم فيه مختلفون »^(٥) ما نصه « عن أبي حمزة الثمالي قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن قوله تعالى : « عم يتساءلون . عن النبا العظيم . الذي هم فيه مختلفون » . فقال : كان علي بن أبي طالب عليه السلام يقول لأصحابه : أنا والله النبا العظيم الذي اختلف فيه جميع الأمم بألستها ، والله ما لله نبا أعظم مني ، ولا - والله - آية أعظم مني » اهـ (ص ٢٠٢) .

وفي تفسير الطبري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ لقوله تعالى في الآية : ٣٣ من سورة الأحزاب : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » نجده يحاول محاولة جدية أن يقصر

(٥) النبا : ١ - ٣ .

أهل البيت على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى وفاطمة والحسن والحسين ، وأن يجعل الآية خاصة بهؤلاء الخمسة ، وأن الإرادة فيها تحمل الإرادة المحضة ، والإرادة التي يتبعها التطهير وإذهاب الرجس ، ثم يدعى أن الاحتمال الثاني هو المراد ، ويعقب ذلك بقوله « وفي ثبوته عصمة الأئمة بالآية من جميع القبائح » (ج ١ ص ٥٠) .

ويدهى أن هذا الاتجاه في تفسير ما سبق من الآيات إنما دفع قائله إليه ما يعتقدون في الإمامة والأئمة .

ولسنا بحاجة إلى الإطالة في إبطال هذا الاتجاه ، بعد ما أثبت لنا علماء الحديث ونقاده ، أن كل الروايات في ولاية علي ليس لها أساس من الصحة ، وأنها من وضع الشيعة أنفسهم ليروجوا بها مذهبهم في الإمامة والأئمة .

ثم ألا ترى معي أن ما ذكره البحراني في آخر روايته لحديث الولاية من أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « والله لقد تصدقت بأربعين خاتما وأنا راعع لينزل الله في ما نزل في علي بن أبي طالب عليه السلام فما نزل » فيه رائحة الكذب والافتراء على عمر رضى الله عنه ؟

على أن آية الولاية - كما يسمونها - يراد منها ولاية النصره والمعونة ، لا ولاية التدبير والقيام على شأن الغير كما فهمها الإمامية . ثم ما الذى يصرف قوله : « والذين آمنوا » (٦) . .

(٦) المائة : ٥٥ .

الخ ، عن عمومه إلى خصوص على رضي الله عنه ، ولو كانت الآية نزلت في شأن على كما يقولون ، فإن المقرر الثابت أن العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

وما ذكره ابراهيم بن فرات الكوفي في تفسيره لأول سورة النبأ قول ينبو عنه سياق السورة ، ويطله أن الله سبحانه وتعالى أنباء وآيات أعظم من على رضي الله عنه .

وما ذكره الطبرسي من استدلاله بآية الأحزاب على عصمة الأئمة ، مدفوع بأن صدر الآية وما بعدها في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فقصرها على من ذكر ، وحمله للإرادة على الإرادة التي يتبعها التطهير وإذهاب الرجس ، تحكم ظاهر دفعه إليه الهوى ، وحمله عليه التعصب المذهبي .

وفي تفسير البحراني عندما عرض لقوله تعالى في الآيات : ٣٦ - ٣٨ من سورة الحجر « رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم » يقول ما نصه « روى عن وهب بن جميع مولى اسحاق بن عمار قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول إبليس : « رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم » قال له وهب : جعلت فداك أى يوم هو ؟ قال : يا وهب ، أتحسب أنه يوم يبعث الله فيه الناس ؟ إن الله أنظره إلى يوم يبعث فيه قائمنا ، فإذا بعث قائمنا كان في مسجد الكوفة ، وجاء إبليس حتى يجثو بين يديه على ركبتيه فيقول : يا ويله من هذا اليوم ، فيأخذ بناصيته فيضرب عنقه ، فذلك يوم الوقت المعلوم » . (ج ٢ ص ٢٤٣) .

وظاهر أن الذي دفع البحراني إلى هذا الاتجاه ، إنما هو عقيدته في إمامة المهدي المنتظر الذي سيخرج آخر الزمان ليملأ الأرض عدلا كما ملئت ظلما وجورا .

وظاهر أيضا أن البعث المذكور في الآية هو بعث الخلائق يوم القيامة ، لا بعث مهديهم ، وإلا فما وجه الجمع في « يبعثون » وما الدليل على مايقولون ؟ .

وفي « الصافي » لملا محسن الكاشي ، نجد المؤلف يعرض لقوله تعالى في الآيتين : ٥٥ ، ٥٦ من سورة البقرة : « وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » يقول ما نصه : « .. أقول : قيد البعث بالموت لأنه قد يكون عن إغماء ونوم . وفيه دلالة واضحة على جواز الرجعة التي قال بها أصحابنا نقلا عن أئمتهم . واحتج بهذه الآية أمير المؤمنين على ابن الكواء حين أنكرها . . . » ثم نقل عن القمي أنه قال في الآية : « هذا دليل على الرجعة في أمة محمد صلى الله عليه وسلم . . . فانه لم يكن في بني اسرائيل شيء ، إلا وفي أمته مثله . . . يعني دليلا على وقوعها » أهـ (ج ١ ص ٣٥) .

وواضح تأثير العقيدة على الكاشي في هذا الاتجاه المنحرف في تفسير الآية ، ولا أرى في الآية دليلا ولا شبه دليل على الرجعة . ودعوى أنه لم يكن في بني اسرائيل شيء إلا وفي أمة محمد صلى الله عليه وسلم مثله ، دعوى لا تقوم على أساس من الحق ، وليس لها أصل معروف في شريعتنا ، ولا في غيرها من الشرائع السماوية .

وفي التفسير المنسوب إلى الحسن العسكري عندما يعرض لقوله تعالى في الآية : ١٦٣ من سورة البقرة : « وإلهكم إله واحد ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » يقول ما نصه : « ... الرحيم بعباده المؤمنين من شيعة آل محمد ، وسع لهم في التقية ، يجاهرون بإظهار موالاته أولياء الله ، ومعاداة أعدائه إذا قدروا ، ويسرونها إذا عجزوا » أهـ (ص ٢٣٩) .

وليس يخفى أن هذا الانحراف في التأويل إنما دفع إليه مبدأ التقية الذي تدين به الإمامية . ولست أدري وجهاً لتخصيص ما في الآية من رحمة الله تعالى بشيعة آل محمد ، ولا لقصر الرحمة على كثرة مظاهرها - على مبدأ التقية الذي لا أراه إلا مبدأً سياسياً ، وباباً من أبواب النفاق والخداع الذي تجل عنه رحمة الله سبحانه .

وإذا ما تتبعنا كتب التفسير للإمامية الإثني عشرية ، وجدناها كلها تحتوي على اتجاهات منحرفة في التأويل ، ووجدنا كثيراً منها مليئاً بخرافات وأباطيل ، لا يقرها عقل ولا شرع ، وكم من لفظ قرآني حرف عن مدلوله الحقيقي ، إلى مدلولات لا وجودها إلا في عقول أصحابها ، فالجيت والطاغوت حيث ورد في القرآن ، يؤولونها بأبي بكر وعمر ، والبقرة التي أمر الله بنى إسرائيل بذبحها ، يؤولونها بعائشة رضي الله عنها . والشجرة الملعونة في القرآن هي شجرة نسب بنى أمية .

ومما لا ينقضي منه العجب ، ما ذكره المولى عبداللطيف الكازراني في : « مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار » عن الحجة القائم

أنه سئل عن تأويل : « كهيعص » فقال : ان هذه الحروف من
 أنباء الغيب ، أطلع الله عليها عبده زكريا ، ثم فصلها على محمد
 صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن زكريا سأل ربه أن يعلمه أسماء
 الخمسة ، فأهبط الله عليه جبريل عليه السلام فعلمه إياها ،
 فكان زكريا إذا ذكر محمداً وعلياً وفاطمة والحسن ، سرى عنه
 همه ، وانجلى كربه ، وإذا ذكر الحسين خنقته العبرة ،
 ووقعت عليه البهرة ، فقال ذات يوم : إلهى . . ما بالى إذا ذكرت
 أربعا منهم تسليت بأسمائهم عن همومي ؟ وإذا ذكرت الحسين
 تدمع عيني وتثور زفرتي ؟ فأنبأه تعالى عن قصته ، فقال :
 كهيعص ، فالكاف : اسم كربلاء ، والهاء : هلاك العترة ،
 والياء : يزيد لعنه الله وهو ظالم الحسين ، والعين : عطشه ،
 والصاد : صبره ، فلما سمع بذلك زكريا ، لم يفارق مسجده ثلاثة
 أيام ، ومنع فيها الناس من الدخول عليه . . . » أهـ (ص
 ٢٣٣) .

وهذا يخالف ما عليه جمهور المفسرين من معاني الحروف
 المقطعة في أوائل السور . والرمز بالحروف المذكورة في مطلع سورة
 مريم إلى ما ذكره الكازراني عن القائم ، ليس له وجود إلا في
 عقول غلاة الإمامية الإثني عشرية .

مع الخوارج والصوفية

● الاتجاه المنحرف في التفسير للخوارج :

نشأت فرقة الخوارج بعد ما هو معروف من قضية التحكيم التي خدع فيها عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري .

ودب الخلاف بين الخوارج فتفرقوا أحزابا ، كل حزب يقارن الآخر في المبدأ والعقيدة : ولكن يجمع الكل على مبدأين اثنين :

أحدهما : اكفار عثمان وعلى ، ومعاوية ، والحكمين ، وأصحاب الجمل ، وكل من رضى بالتحكيم .

ثانيهما : وجوب الخروج على السلطان الجائر .

وهناك مبدأ ثالث يقول به أكثر الخوارج وهو : الإكفار بارتكاب الكبائر^(١) .

ولللخوارج مبدأ في الخلافة وهو : أن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين ، وإذا اختير الخليفة فليس يصح أن يتنازل أو يحكم ، وليس بضروري أن يكون الخليفة قرشيا ، بل يصح أن يكون من قريش ومن غيرهم ولو كان عبدا حبشيا ، وإذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين ، ويجب أن يخضع خضوعا تاما لما أمر الله ، وإلا وجب عزله .

(١) انظر : الفرق بين الفرق ص ٥٥

وعلى هذا المبدأ في الخلافة حكموا بصحة خلافة أبي بكر وعمر ، وبصحة خلافة عثمان في سنيه الأولى ، فلما غير ولم يسر سيرة الشيخين - كما زعموا - وجب عزله . وأقروا بصحة خلافة علي أولاً ، ثم خرجوا عليه بعد أن أخطأ في التحكيم وكفر بسببه كما يزعمون .

وكان طبيعياً - وقد تعددت فرق الخوارج وكلها ينتسب إلى الإسلام ويعترف بالقرآن - أن تبحث كل فرقة منهم عن أسس من القرآن الكريم تبنى عليه مبادئها وتعاليمها وأن تنظر إلى القرآن من خلال عقيدتها ، فما رأته في جانبها - ولو إدعاء - تمسكت به واعتمدت عليه ، وما رأته في غير جانبها حاولت التخلص منه بتأويله تأويلاً لا يصادم مبادئها وتعاليمها .

والذي يقرأ ما ينقل عن الخوارج من أفكار التفسير ، وما جاء في تفاسيرهم التي في متناول أيدينا يرى أن المذهب قد سيطر على عقولهم ، وتحكم في أفهامهم ، فأصبحوا لا ينظرون للقرآن إلا من خلال آرائهم ومعتقداتهم ولا يدركون شيئاً من معانيه إلا على ضوء المذهب وتحت تأثير سلطانه .

فمثلاً نرى أكثر الخوارج يجمعون على أن مرتكب الكبيرة كافر ومخلد في نار جهنم . ونقرأ في الكتب التي تكلمت عن الخوارج فنجد ابن أبي الحديد - وهو ممن تعرض لهم في كتابه « شرح نهج البلاغة » - يسوق لنا أدلتهم التي أخذوها من القرآن ، وبنوا عليها رأيهم في مرتكب الكبيرة ، وكان مما ذكره من هذه الأدلة قوله تعالى في الآية : ٩٧ من سورة آل عمران : « والله على الناس حجج

البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » قالوا : فجعل تارك الحج كافرا .

ومنها : قوله تعالى في الآية ٤٤ من سورة المائدة : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » قالوا : وكل مرتكب للذنوب فقد حكم بغير ما أنزل الله .

ومنها : قوله تعالى في الآية : ٢ من سورة التغابن : « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » . قالوا : وهذا يقتضى أن من لا يكون مؤمنا فهو كافر ، والفاسق ليس بمؤمن فوجب أن يكون كافرا^(٢) .

... ولكن هل تسلم لهم هذه الأفهام التى قالوها فى هذه الآيات ونظائرها ؟

لا ... فلا يسع الذى يعرف سياق هذه الآيات وسباقها ، ويعرف الآيات والأحاديث الواردة فى حق مرتكبى الكبائر ، وعصاة المؤمنين ، ويتأمل قليلا فى هذه التخريجات والاستنتاجات التى يقولونها .. لا يسعه بعد هذا كله إلا أن يحكم بأن القوم متعصبون ، ومدفعون بدافع العقيدة وسلطان المذاهب .

ولسنا نعرف من فرق الخوارج فرقة باقية إلى اليوم غير فرقة الإباضية ، وهى أعدؤها . ولسنا نعرف لغير هذه الفرقة مصنفات فى التفسير ، والذى وقع لنا من تفاسيرهم شئ قليل ، وفى هذا القليل الذى وقع لنا واطلعنا عليه وقفنا على أمثلة كثيرة من

(٢) انظر : شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ، المجلد الثانى ص ٣٠٧ ، ٣٠٨

التأويلات المنحرفة في التفسير، والتي تأثرت إلى حد كبير
بمعتقدات الإباضية ومبادئهم، فمن هذه المثل ما يلي :

جاء في كتاب التفسير المسمى : « هيمان الزاد إلى المعاد »
لمحمد بن يوسف أطفيش الإباضي المتوفى سنة ١٣٣٢ هـ عندما
عرض لقوله تعالى في الآية : ٢٥ من سورة البقرة : « وبشر
الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها
الأنهار .. » مانصه : « ترى الإنسان يقيد كلامه مرة واحدة
بقيد ، فيحمل سائر كلامه المطلق على هذا التقييد ، فكيف يسوغ
لقومنا أن يلغوا تقييد الله - عز وجل - الإيمان بالعمل الصالح ؟ بل
الإيمان نفسه مفروض لعبادة من يجب الإيمان به وهو الله تعالى ؟ إذ
لا يخدم الإنسان مثلاً - سلطاناً لا يعتقد بوجوده وثبوت سلطته ،
فالعمل الصالح كالبناء النافع ، المظلل المانع للحر والبرد
والمضرات . والإيمان أَس ، ولا ينفع الأَس بلا بناء عليه ، ولو
بنى الإنسان الوفاً من الأَسس ولم يبن عليها لهلك باللصوص والحر
والبرد وغير ذلك ، فإذا ذكر الإيمان مفرداً قيد بالعمل الصالح ،
وإذا ذكر العمل الصالح فما هو إلا فرع الإيمان ، إذ لا نعمل لمن
لا نقر بوجوده . وفي عطف الأعمال الصالحات على الإيمان دليل
على أن كلاً منهما غير الآخر ، لأن الأصل في العطف المغايرة بين
المتعاطفين ، ففي عطف الأعمال الصالحات على الإيمان ، إيذان
بأن البشارة بالجنات إنما يستحقها من جمع بين الأعمال الصالحات
والإيمان » أهـ (ج ١ ص ٣٦٠ - ٣٦١) .

وليس يخفى أن صاحب « هيمان الزاد » ، تأثر في تفسيره

للآية بما يعتقدده من أن العمل جزء الإيمان ، ولا يتحقق الإيمان بدونه ، وهذا المذهب رده أهل السنة بما هو مقرر في كتب العقائد والرجوع إليه سهل ميسور .

وفي كتاب «هميان الزاد» أيضاً ، نجد المؤلف عندما يعرض لقوله تعالى في الآية : ٨١ من سورة البقرة : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار ، هم فيها خالدون » يقول مانصه : « سيئة : خصلة قبيحة ، وهي الذنب الكبير سواء أكان نفاقاً أو إشراكاً . ومن الذنوب الكبيرة الإصرار ، فانه نفسه كبيرة سواء أكان على الصغيرة أو الكبيرة . والدليل على أن السيئة كبيرة قوله : « فأولئك أصحاب النار » . ويحتمل وجه آخر ، وهو : أن السيئة الذنب صغيراً أو كبيراً ، ثم يخصص الكلام بالكبيرة بقوله : « وأحاطت به خطيئته » . وإن قلت : روى قومنا عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن السيئة هنا الشرك ، وكذا قال الشيخ هود^(٣) - رحمه الله - انها الشرك ، قلت : ما ذكرته أولى مما ذكره ، فإن لفظ السيئة عام ، وحمله على العموم أولى ، إذ ذلك تفسير منها لا حديث ، ولا سيما أنها وقومنا يعترفون بأن الكبيرة تدخل فاعلها النار ، ولم يقتصروا دخولها على الشرك ، ومعترفون بأن لفظ الخلود يطلق على المكث الكثير ، سواء أكان أبدياً أو غير أبدي ، وادعاء أن الخلود في الموحدين بمعنى المكث الطويل ، وفي الشرك بمعنى المكث الدائم ، استعمال للكلمة في حقيقتها ومجازها وهو ضعيف ، وأيضاً ذكر

(٣) يريد «هود بن محكم الهوارى» من شيوخ الإباضية في القرن الثالث الهجرى .
وله تفسير مشهور بين أهل المغرب .

إحاطة الخطيئات ولو ناسب الشرك كغيره ، لكنه أنسب بغيره ، لأن الشرك أقوى : « وأحاطت به خطيئته : ربطته ذنوبه وأوجبت له دخول النار ، فصار لا خلاص له منها، كمن أحاط به العدو أو الحرق ، أو حائط السجن ، وذلك بأن مات غير تائب » أه (ج ٢ ص ١٤٠) .

وليس يخفى أن الذى دعاه الى هذا الفهم المنحرف فى الآية إنما هو مذهبه فى أن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار . ويكفى فى الرد على هذا المذهب ما صح عند البخارى وغيره من حديث أبى سعيد الخدرى ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ثم يقول الله تعالى : أخرجوا من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، فيخرجون منها قد اسودوا ، فيلقون فى نهر الحياة ، فينبتون كما تنبت الحبة فى جانب السيل ، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية ؟ » .

وفى كتاب « هميان الزاد » أيضا نجد المؤلف حينما يعرض لقوله تعالى فى الآية : ٣٥ من سورة النساء : « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها . . . » يقول ما نصه : « . . . ولا دليل فى الآية على جواز التحكيم ، لأن مسألة الحال إنما هى ليتحقق بالحكمين ما قد يخفى من حال الزوجين ، بخلاف ما إذا ظهر بطلان إحدى الفرقتين بأن الله قد حكم بقتالها . وأيضاً المراد هنا : الإصلاح مثلا لا مجرد بيان الحق » أه (ج ٤ ص ٤٧٨) .

والواقع أن الآية تدل على جواز التحكيم عند وقوع

الاختلاف ، وكون الحق في جانب علي ، فلا مجال حينئذ
للتحكيم ، غير صحيح لأن كلاً من الطرفين يدعى أن الحق في
جانبه .

فقطماً للخلاف كان التحكيم جائزاً حتى يعلم هؤلاء وهؤلاء ،
وغيرهم ممن وقفوا محايدين أي الفريقين على الحق فيخضع
الجميع له .

ثم إن صاحب « هيمان الزاد » ، لا يكاد يجد مناسبة يذكر فيها
عثمان أو علي إلا وينال منها ، ويدعى كذباً على رسول الله صلى
الله عليه وسلم أنه قال فيها قولاً ينقص من قدرهما . فعند تفسيره
لقوله تعالى في الآية : ٥٥ من سورة النور : « وعد الله الذين
آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض . . . »

نجده يقول ما نصه : « . . . قال المخالفون عن الضحاك : إن
الذين آمنوا هم : أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ ، وأن
استخلافهم : إمامتهم العظمى ، وسيأتي ما يدل على بطلان
دخول عثمان وعليّ في ذلك » ثم قال : « وفي أيام أبي بكر ،
وعمر ، وعثمان ، وعليّ ، وبعدهم كانت الفتوح العظيمة ،
وتمكين الدين لأهله ، لكن لا دليل في ذلك على إصابة عثمان
وعليّ ، فإنهما - وإن كانت خلافتها برضا الصحابة - لكن ما ماتا
إلا وقد بدلا وغيرا فسحقا . . . كما في أحاديث عنه صلى الله عليه
وسلم أنها مفتونان ثم يقول عند تفسيره لقوله تعالى في آخر
الآية :

« ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »^(١) « أقول : والله أعلم بغيبه : إن أول من كفر بتلك النعمة ، وجحد حقها عثمان ابن عفان ، جعله الناس على أنفسهم وأموالهم فخانهم . في ذلك » . . إلى أن يقول « ونزل : « واتقوا فتنة »^(٢) بحضرة أبي بكر ، وعمر - رضى الله عنهما - وعثمان ، وعلى فقال - يعنى النبي صلى الله عليه وسلم - لعثمان : « بك تفتح وبك تشب » وقال لعلى : « أنت إمامها وزمامها وقائدها ، تمشى فيها مشى البعير في قيده » . وقال : « لضرس بعض الجلوس في نار جهنم أعظم من جبل أحد » . وقال : « يثور دخانها تحت قدمي رجل يزعم أنه مني وليس مني ألا إن أولياء الله المتقون » اهـ (جـ ١٠ ص ٢٨٠ - ٢٨٣) .

وقال عند تفسيره لقوله تعالى في الآية : ٢٣ من سورة الشورى : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » مانصه : « . . . فمودة قرابته صلى الله عليه وسلم من لم يبدل منهم ولم يغير مثل : فاطمة وحمزة والعباس وابنه رضى الله عنهم واجبة » ثم ساق روايات كثيرة في الحث على حب آل البيت ومودتهم ، وعندما فرغ منها قال : لكن المراد بأله الذين لم يبدلوا فخرج على ونحوه ممن بدل . . . » اهـ (جـ ١٢ ص ٢٢٧) .

ولسنا نرى صاحب « هيمان الزاد » إلا متجنباً على عثمان وعلى رضى الله عنهما في حملاته ، وما ذكره من الأحاديث في ذمهما

(٥) الأنفال : ٢٥ .

(٤) النور : ٥٥ .

صراحة أو تلميحاً ، لا نشك في أنه مما جرى على ألسن وضاع الحديث من الخوارج لينصروا بها مذهبهم ، ويروجوا له بين الناس ، وفضل عثمان وعلى رضي الله عنهما لا يجحد ، وكرامتهما على الله ورسوله لا تنكر ، وفي الصحيح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يشهد لهما بذلك .

● الاتجاه المنحرف في التفسير للصوفية :

وُجِدَ التصوّف - بمعنى الزهد والتقشف والمبالغة في العبادة - منذ الصدر الأول للإسلام ، ولم يعرف لفظ التصوّف ، ولم تطلق كلمة الصوفية على هؤلاء الزهاد إلا في منتصف القرن الثاني الهجري ، وفي هذا القرن تولدت بعض الأبحاث الصوفية ، وظهرت تعاليم القوم ونظرياتهم التي تواضعوا عليها ، وأخذت هذه الأبحاث والتعاليم تنمو وتتزايد ، كلما تقادم العهد عليها ، وبمقدار ما يستفيده القوم ممن يتصلون بهم من الفلاسفة وغيرهم .

ولقد كان لبعض المتصوّفة صلوات قوية بالفلاسفة ، واهتمام ظاهر بالنظريات الفلسفية ، حتى وجدنا من بينهم رجالاً أشبه بالفلاسفة منهم بالصوفية ، وأصبحنا نرى بعضهم يدين بنظريات فلسفية لا تتفق ومبادئ الشريعة ، ومن هنا كان للمتصوفة في تصوفهم اتجاهان : اتجاه نظري يقوم على البحث والدراسة .

واتجاه عملي يقوم على التقشف والزهد والتفاني في إطاعة الله .

وكان للمتصوفة - كغيرهم من طوائف المسلمين - دراسات في القرآن الكريم ، وكان لهم في تفسيره مؤلفات حوتها المكتبة

الإسلامية ، بعضها قديم وبعضها حديث ، وكانت دراسات المتصوفة للقرآن ، وشروحهم له عليها طابع التصوف ، فظهر فيها بوضوح أثر التصوف النظرى الذى يبنى على مقدمات علمية تتقدح فى ذهن الصوفى أولاً ، ثم ينزل القرآن عليها بعد ذلك .

كما ظهر بوضوح - أيضاً - أثر التصوف العملى الذى يركز على رياضة روحية ، يأخذ بها الصوفى نفسه ، حتى يصل إلى درجة تنكشف له فيها من سجع العبارات إشارات قدسية ، وتنهل على قلبه من سحب الغيب معارف سبحانه ، يشرح بها كتاب الله عز وجل .

وإذا ما ذهبنا نستعرض ما للقوم من تفسير صوفى نظرى ، وما لهم من تفسير إشارى فيضى ، وجدنا فى هذا أو ذاك اتجاهًا منحرفًا عن النهج القويم لتفسير القرآن الحكيم ، فالتفسير الصوفى النظرى تفسير يخرج بالقرآن - فى الغالب - عن هدفه الذى يرمى إليه . . يقصد القرآن هدفًا معينًا بنصوصه وآياته ، ويقصد الصوفى هدفًا معينًا بأبحاثه ونظرياته ، وقد يكون بين الهدفين تنافر وتضاد فيأبى الصوفى إلا أن يحول القرآن عن هدفه ومقصده إلى ما يقصده هو ويرمى إليه ، وغرضه بهذا كله أن يروج لتصوفه على حساب القرآن ، وأن يقيم نظرياته وآراءه على أساس من كتاب الله ، وبهذا الصنيع يكون الصوفى قد خدم فلسفته ونظرياته التصوفية ، ولم يقدم للقرآن شيئاً إلا هذا التأويل الذى كله شر على الدين ، وإلحاد فى آيات الله .

رأينا ابن عربى يميل ببعض الآيات إلى ما يذهب إليه من القول

بوحدة الوجود ، ورأينا غيره كأبي يزيد البسطامي والحلاج ومن على شاكلتهما يسلك هذا المسلك نفسه أو قريباً منه ، ووحدة الوجود - عندهم - معناها : أنه ليس هناك إلا وجود واحد ، كل العالم مظاهر ومجال له ، فالله سبحانه هو الموجود بحق ، وكل ما عداه ظواهر وأوهام ، ولا توصف بالوجود إلا بضرب من التوسع والمجاز .

هذا المذهب خوّل لمثل الحلاج أن يقول : أنا الله ، ولثل ابن عربي أن يقول : إن عجل بنى إسرائيل أحد المظاهر التي اتخذها الله وحل فيها ، والذي جره فيها بعد إلى القول بوحدة الأديان ، وأنه لا فرق بين سماوى وغير سماوى ، إذ الكل يعبدون الإله الواحد المتجلى في صورهم وصور جميع المعبودات .

ولقد وجدنا لابن عربي في الفتوحات المكية ، وفي نصوص الحكم ، وفي كتاب التفسير المنسوب له أقوالاً في التفسير بناها على نظريته في وحدة الوجود ، فمن ذلك أنه فسر قوله تعالى في الآية : ٢٣ من سورة الإسراء : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه . . » فقال مانصه : « . . . فعلماء الرسوم يحملون لفظ قضى على الأمر ، ونحن نحمله على الحكم كشفاً وهو الصحيح ، فإنهم اعترفوا أنهم ما يعبدون هذه الأشياء إلا لتقربهم إلى الله زلفى ، فأنزلهم منزلة النواب الظاهرة بصورة من استنابهم ، وما ثم صورة إلا الألوهية فنسبوا إليهم ، ولهذا يقضى الحق حوائجهم إذا توسلوا بها إليه غيرة منه على المقام أن يهتضم ، وإن أخطأوا في النسبة فما أخطأوا في المقام . . . » أهـ . (من الفتوحات ج ٣ ص ١١٧) .

ولما فسر قوله تعالى في الآية : ١٦٣ من سورة البقرة :
« وإلهكم إله واحد » قال مانصه : « ... إن الله تعالى خاطب
في هذه الآية المسلمين . والذين عبدوا غير الله قرابة إلى الله ، فما
عبدوا إلا الله ، فلما قالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى
فأكدوا ذكر العلة ، فقال الله لنا : إن إلهكم ، والإله الذى يطلب
المشرك القرية إليه بعبادة هذا الذى أشرك به واحد ، كأنكم
ما اختلفتم في أحديته ... » أهـ (في الفتوحات جـ ٤ ص ١٦٠
وما بعدها) .

ولما فسر قوله تعالى في الآيتين : ٨ ، ٩ من سورة المزمل :
« واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً . رب المشرق
والمغرب ... » قال مانصه : « واذكر ربك الذى هو أنت ، أى
اعرف نفسك واذكرها ولا تنسها فينسك الله ، واجتهد لتحصيل
كمالها بعد معرفة حقيقتها ... » « رب المشرق والمغرب » أى
الذى ظهر عليك نوره فطلع من أفق وجودك بإيجادك ، والمغرب :
الذى اختفى بوجودك وغرب نوره فيك واحتجب بك » أهـ (من
تفسير ابن عربى جـ ٢ ص ٣٥٢) .

ومن التفسير الذى تأثر فيه ابن عربى بنظريات الفلاسفة ،
ولكنه لا يبلغ فى انحرافه مبلغ ما سبق ، تفسيره لقوله تعالى فى
الآية : ٥٧ من سورة مريم ، فى شأن إدريس عليه السلام :
« ورفعناه مكاناً علياً » وذلك حيث يقول : « وأعلى الأمكنة المكان
الذى تدور عليه رحى عالم الأفلاك ، وهو فلك الشمس ، وفيه
مقام روحانية إدريس وتحت سبعة أفلاك ، وفوقه سبعة أفلاك ،

وهو الخامس عشر . . . « ثم ذكر الأفلاك التي تحت فلك الشمس والتي فوقه ، ثم قال : « وأما علو المكاة فهو لنا أعنى المحمدين كما قال تعالى : « وأنتم الأعلىون والله معكم » (١) أهـ (من النصوص ج ١ ص ٢٦) .

ومن ذلك أيضاً تفسيره لقوله تعالى في الآيتين : ١٩ ، ٢٠ من سورة الرحمن : « مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان » حيث يقول : « مرج البحرين » : بحر الهيولى الجسمانية الذى هو الملح الأجاج ، وبحر الروح الذى هو العذب الفرات . « يلتقيان » : فى الوجود الإنسانى . « بينهما برزخ » : هو النفس الحيوانية التى ليست فى صفاء الروح المجردة ولطافتها ، ولا فى كثرة الأجساد الهيولانية وكثافتها ، « لا يبغيان » : لا يتجاوز أحدهما حده فيغلب على الآخر بخاصيته ، فلا الروح يجرد البدن ويخرج به ويجعله فى جنسه ، ولا البدن يجسد الروح ويجعله مادياً . سبحان خالق الخلق القادر على ما يشاء » أهـ (فى تفسير ابن عربى ج ٢ ص ٢٨٠) .

وليس من شك فى أن التفسير الذى أقامه ابن عربى على نظرية وحدة الوجود لا يقبل بحال من الأحوال ، لأنه هدم للدين من أساسه .

كما أن التفسير الذى أقامه على نظريات الفلاسفة فى الطبيعة وما وراء الطبيعة لا يقبل على أنه تفسير موافق لمراد الله تعالى ومقصوده الذى جاء القرآن من أجله .

هذه كلمة الحق أقولها في الاتجاه النظري للتفسير الصوفي .

أما الاتجاه الإشاري أو الفيضي ، فللقوم فيه جولات وشطحات ، وإذا ما بحثنا عن مستند لهذا الاتجاه في التفسير ، وجدنا مستندهم الأول والأهم ما ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن القرآن له ظاهر وباطن . وعلماء الرسوم - في زعم القوم - يفهمون الظاهر فقط ، أما الباطن فلا يدركه إلا من صفت نفسه ، وتعلق بالله قلبه ، حتى أصبح يدرك بعين اليقين ما لا يدركه أهل الرسوم بعلم اليقين . ولا نريد أن نناقش القوم في صحة ما ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن القرآن له ظاهر وباطن ، ولكن نناقشهم في معنى الظاهر والباطن ، فهل الظاهر : ما يظهر من معنى النص القرآني بادي الرأي ، والباطن : ألباطن وأحاجي ومعميات لا يفهمها إلا هم ؟ .. لا ، فالقرآن فوق هذا ، لأن الله يقول في شأنه : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر »^(٧) .

ويقول : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين »^(٨) .
ويقول : « ولقد أنزلنا إليك آيات بينات »^(٩) :

والذي أدين الله عليه أن ظاهر القرآن - وهو المنزل بلسان عربي مبين - هو المفهوم العربي المجرد ، وباطنه هو مراد الله تعالى

(٧) القمر : ١٧ ، وآيات أخرى . (٨) المائدة : ١٥ .

(٩) البقرة : ٩٩ .

وغرضه الذى يقصد إليه من وراء الألفاظ والتراكيب ، وعلى ذلك نقول :

إن كل ما كان من المعانى العربية التى لا يبنى فهم القرآن إلا عليها داخل تحت الظاهر ، وإذن لا يشترط فى فهم ظاهر القرآن الكريم زيادة على الجريان على اللسان العربى ، وكل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربى ليس من تفسير القرآن فى شىء . . لا مما يستفاد منه ولا مما يستفاد به ، ومن ادعى غير ذلك فهو مبطل فى دعواه .

أما المعنى الباطن فلا يكفى فيه الجريان على اللسان العربى وحده ، بل لابد فيه مع ذلك من نور يقذفه الله تعالى فى قلب الإنسان يصير به نافذ البصيرة سليم التفكير ، ومعنى هذا : أن التفسير الباطن ليس أمراً خارجاً عن مدلول اللفظ القرآنى . . ولهذا اشترط العلماء لصحة المعنى الباطن شرطين أساسيين :

أولهما : أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر فى لسان العرب بحيث يجرى على المقاصد العربية .

وثانيهما : أن يكون له شاهد نصاً أو ظاهراً فى محل آخر يشهد لصحته من غير معارض .

أما الشرط الأول : فظاهر من قاعدة كون القرآن عربياً ، فإنه لو كان له فهم لا يقتضيه كلام العرب ، لم يوصف بكونه عربياً بإطلاق ، ولأنه مفهوم يلصق بالقرآن وليس فى ألفاظه ولا فى معانيه ما يدل عليه ، وما كان ذلك فلا يصح أن ينسب إليه أصلاً ، إذ ليست نسبته إليه على أنه مدلوله أولى من نسبة ضده

إليه ، ولا مرجح يدل على أحدهما ، فإثبات أحدهما تحكم وتقول على القرآن ظاهر ، وعند ذلك يدخل قائله تحت إثم من قال في كتاب الله بغير علم .

وأما الشرط الثاني : فلأنه إن لم يكن له شاهد في محل آخر أو كان وله معارض ، صار من جملة الدعاوى التي تدعى على القرآن والدعوى المجردة عن الدليل غير مقبولة باتفاق العلماء^(١٠) .

إذا عرفنا هذا كله ، ثم ذهبنا نستعرض على ضوءه أقوال القوم في معاني القرآن الباطنة ، وجدنا كثيراً منها من قبيل الباطن الصحيح ، ووجدنا كثيراً منها أيضاً من قبيل الباطن الفاسد المرفوض .

فمن الأفهام الباطنة المنقولة عنهم في التفسير ويمكن أن تكون من قبيل الباطن الصحيح المقبول : ما قاله سهل التستري في تفسيره لقوله تعالى في الآية : ٢٢ من سورة البقرة : « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » . قال - رحمه الله - : « فلا تجعلوا لله أنداداً » : أى أضداداً ، فأكبر الأضداد ، النفس الأمارة بالسوء ، المتطلعة إلى حظوظها ومنهاها بغير هدى من الله « أهـ . (من تفسير القرآن العظيم للتستري ص ١٤) .

فهذا القول من سهل يشير إلى أن النفس الأمارة بالسوء داخله تحت عموم الأنداد ، حتى لو فصل لكان المعنى : فلا تجعلوا لله أنداداً ، لا صنماً ولا شيطاناً ، ولا النفس ، ولا كذا ، ولا كذا ،

(١٠) الموافقات : للشاطبي ج ٣ ص ٣٩٤ .

وهذا مشكل من حيث الظاهر ، لأن سياق الآية وما يحف بها من قرائن ، يدل على أن الأنداد مراد بها كل ما يعبد من دون الله ، سواء أكان صنماً أم غير صنم ، أما الأنفس فلم تكن معبودة لهم ، ولم يعرف أنهم اتخذوها أرباباً من دون الله ، ومع هذا فيمكن أن يكون لهذا التفسير وجه صحيح ، وبيان ذلك :

إن الناظر في القرآن الكريم ، قد يأخذ من معنى الآية معنى من باب الاعتبار ، فيجريه فيما لم تنزل فيه الآية ، لأنه يجامعه في القصد أو يقاربه ، وسهل التسترى - رحمه الله - حين قال في الآية ما قال لم يرد أنه تفسير للآية ، بل أتى بما هو نِدٌّ في الاعتبار الشرعى ، وذلك لأن حقيقة النِدِّ : أنه المضاد لِنِدِّهِ ، الجارى على مناقضته ، والنفس الأمانة هذا شأنها ، لأنها تأمر صاحبها بمراعاة حظوظها ، لاهية أو صادة عن مراعاة حقوق خالقها وهذا هو الذى يعنى به النِدِّ بالنسبة لِنِدِّهِ ، لأن الأصنام نصبوها لهذا المعنى بعينه ، وعلى هذا فلا غبار على قول سهل فى الآية ، بل وهناك ما يشهد له من الجهتين : جهة حمل الأنداد على الأنفس الأمانة اعتباراً ، وجهة كون الخطاب - وإن كان موجهاً للمشركين - فيه لأهل الإسلام نظر واعتبار .

أما ما يشهد له من الجهة الأولى : فقوله تعالى فى الآية : ٣١ من سورة التوبة : « اتخذوا أبحارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » وظاهر أنهم لم يعبدوهم من دون الله ، ولكنهم ائتمروا بأوامرهم ، وانتهوا عما نهوهم عنه كيف كان ، فيما حرّموا عليهم حرّموه ، وما أباحوا لهم حللوه ، وفاتهم أن المحلّل والمحرم هو

، فقال الله سبحانه « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » وهذا بعينه هو شأن المتبع لهُوى نفسه .

وأما ما يشهد له من الجهة الثانية : فهو أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال لبعض من توسع في الدنيا من أهل الإيمان : أين تذهب بكم هذه الآية ؟ : « أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا » وكان هو يعتبر نفسه بها ، مع أن الآية نزلت في حق الكفار لقوله تعالى في الآية : ٢٠ من سورة الأحقاف : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا . . . » فعمر رضى الله عنه له في الآية نظر واعتبار ، فأخذ من معناها معنى أجرى الآية فيه وإن لم تنزل فيه ، حذراً منه وخوفاً أن يكون التوسع في المباحات سبباً في الحرمان من نعيم الآخرة ومتاعها ، فإذا صح لعمر - رضى الله عنه - أن ينزل الآية على المتوسعين في المباحات من المؤمنين ولم تنزل فيهم ، صح لسهل أيضاً أن ينزل الآية على النفس الأمارة وإن لم تنزل فيها كذلك .

مثل هذا التفسير الذى قاله سهل التستري - وهو كثير في تفاسير الصوفية - لانعدم له وجهاً نحمله عليه حتى يكون تفسيراً صحيحاً مقبولاً .

... ولكن هناك أقوال لبعض الصوفية في التفسير الإشارى يقف أمامها العقل حائراً وعاجزاً ، عن تلمس محمل لها تحمل عليه حتى تبدو صحيحة وتصبح مقبولة .

ر فمن ذلك - وهو كثير - ما ذكره أبو عبد الرحمن السلمى في تفسيره - : « ألم » فاتحة البقرة . قال : « ألم : قيل : إن الألف ألف الوجدانية . واللام : لام اللطف . والميم : ميم الملك . معناه : من وجدنى على الحقيقة ، بإسقاط العلائق والأغراض تلطفت له . . فأخرجته من رق العبودية إلى الملأ الأعلى ، وهو الاتصال بمالك الملك ، دون الاشتغال بشيء من الملك . . . وقيل : ألم : معنى الألف : أى افرء سرك ، واللام : ليت جوارحك لعبادى . والميم : أقم معى بمحورسومك وصفاتك ، أزينك بصفات الأنس بى والمشاهدة إىأى والقرب منى . . . » أهـ : (من حقائق التفسير للسلمى ص ٩) .

ولاشك أن مثل هذا التفسير الذى ذكره أبو عبد الرحمن السلمى ، تفسير مشكل ، وأعظم منه إشكالاً ما زعمه بعض القوم من أن هذه الحروف المقطعة فى أوائل السور ، ترمز إلى أسرار غيبية مكنية ، بل ويدعون - أحياناً - أن هذه الحروف هى أصل العلوم ومنبع المكاشفات على أحوال الدنيا والآخرة ، وينسبون ذلك إلى أنه مراد الله تعالى فى خطابه العرب الأمية التى لا تعرف شيئاً من ذلك ، وهذه كلها دعاوى يدعونها على القرآن ، ولا أحسب أنهم استندوا فيها إلى دليل مقنع ، وكل ما أقوله فيها : أنها دعاوى محالة على الكشف والاطلاع على ما وراء حجب الغيب ، ودعوى الكشف والاطلاع لا تصلح أن تكون دليلاً شرعياً بحال من الأحوال .

وأعجب العجب أن رجالاً دخلوا فى التصوف وهم من غير

أهله ، وتظاهروا بالورع والطاعة ، وتحلوا بالزهد الكاذب والورع المصطنع ، وكان لهؤلاء - على فرط جهلهم - محاولات في التفسير لا يقبلها عقل ولا يقرها شرع ، ولا يمكن بأى حال أن يتحملها النص القرآني الكريم .

فمن ذلك الهراء : ما نقله السيوطي في الإتيقان (ج ٢ ص ١٨٤) عن بعض جهلة المتصوفة أنه فسر قوله تعالى في الآية : ٢٥٥ من سورة البقرة : « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه » فقال : معناه : « من ذل » من الذل « ذى » إشارة إلى النفس ، « يشف » من الشفاء « ع » من الوعى .

ومن ذلك أيضا ما نقل عن بعضهم أنه فسر قوله تعالى في الآية : ٦٩ من سورة العنكبوت : « وإن الله لمع المحسنين » فجعل « لمع » فعلا ماضيا بمعنى أضاء و « المحسنين » مفعوله .

ولا شك أن هذا التفسير وأمثاله إلخاد في آيات الله ، وقائلوه محرفون للكلم عن مواضعه ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون .

مع أصحاب التفسير العلمى

● الاتجاه المنحرف فى التفسير لمن يدعون أن القرآن حوى جميع العلوم الكونية جملة وتفصيلا :

وجد من العلماء قديما وحديثا من تكلم فى تفسير القرآن الكريم على أساس أنه حوى إلى جانب العلوم الدينية سائر علوم الدنيا على اختلاف أنواعها وتعدد ألوانها ، وكان من نتيجة ذلك أنهم حكموا الاصطلاحات العلمية فى عبارات القرآن الكريم ، وحاولوا جادين أن يستخرجوا كل علوم الكون من بين نصوصه ، بل وزعموا أن كل ما يجد من علوم إلى يوم القيامة قد حواها القرآن ويمكن استنباطها منه .

ويظهر لنا أن الإمام الغزالي - إلى عهده - هو أبرز من اتجه هذا الاتجاه فى تفسير القرآن الكريم ، وأهم من أيده وعمل على ترويجه فى الأوساط العلمية الإسلامية .

وإذا ما رجعنا إلى كتاب « الإحياء » نجد الغزالي - رحمه الله - يعقد الباب الرابع من أبواب آداب تلاوة القرآن فى فهم القرآن وتفسيره بالرأى من غير نقل ، وفيه ينقل عن بعض العلماء : « أن القرآن يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتى علم ، إذ كل كلمة ، ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف ، إذ لكل كلمة ظاهر وباطن ، وحد ومطلع » . ثم يروى عن ابن مسعود رضى الله عنه

أنه قال : « من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن » . .
ثم يستطرد فيقول « إن كل ما أشكل فهمه على النظار
واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ، في القرآن إليه
رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها»^(١).

كذلك نجد الغزالي في كتابه « جوهر القرآن » يعقد الفصل
الرابع منه لكيفية إنشعاب العلوم الدينية كلها وما يتصل بها من
القرآن ، ثم يعقد الفصل الخامس لكيفية إنشعاب سائر العلوم
من القرآن أيضاً . . ثم يذكر علوماً عدة ، ويذكر من الآيات
القرآنية . ما يحوى بعض هذه العلوم كنموذج على ما يدعيه ، ثم
ينهى بحثه بقوله : « ففكر في القرآن والتمس غرائبه لتصادف فيه
مجامع علم الأولين والآخرين»^(٢) .

ولو أننا تتبعنا سلسلة البحوث التفسيرية للقرآن الكريم
لوجدنا أن هذه النزعة - نزعة التفسير العلمي - تمتد من عهد
النهضة العلمية العباسية إلى يومنا هذا ، ولوجدنا أنها بدأت على
هيئة محاولات يقصد منها التوفيق بين القرآن وما جد من العلوم ،
ثم وجدت الفكرة مركزة وصریحة على لسان الغزالي ، ومن سلك
مسلكه من العلماء ، ثم طبقت الفكرة علمياً وظهرت في مثل
محاولات الفخر الرازي ضمن تفسيره للقرآن ، ثم جدت بعد
ذلك كتب مستقلة في استخراج العلوم من القرآن وتتبّع الآيات
الخاصة بمختلف العلوم . . وأخيراً راجت هذه الفكرة في العصر
الحاضر الذي يعنى المثقفين والعلماء رواجاً عظيماً نتج عنه مؤلفات

(١) الإحياء ج ٣ ص ١٣٥ . (٢) جواهر القرآن ص ٣٢ - ٣٤ .

كثيرة وتفسير واسعة تسير على ضوء هذه الفكرة .
على أن هذه الفكرة لقيت من جانب بعض آخر من المثقفين
وعلماء المسلمين قديما وحديثا معارضة شديدة . والشاطبي - رحمه
الله - أبرز من ظهر في محيط العلماء قديما بمعارضة أصحاب هذه
الفكرة في التفسير ، وفي كتابه الموافقات يقول ما نصه : « . . .
إن كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد فأضافوا
إليه كل علم يذكر للمتقدمين والمتأخرين » ويقول : « . . . إن
السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف
بالقرآن وبعلمومه وما أودع فيه ، ولم يبلغنا أنه تكلم في شيء من هذا
المدعى . . . ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر لبغنا منه ما يدلنا
على أصل المسألة إلا أن ذلك لم يكن فدل ذلك على أنه غير موجود
عندهم ، وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشيء مما
زعموا . . . » (٣) .

ولقد أبطل الشاطبي بأسلوب علمي واضح مذهب
مخالفه ، وأقام الأدلة على مذهبه ، واعتقادي أن الحق في جانب
الشاطبي ، لأن الأدلة التي ساقها لتصحيح مذهبه أدلة قوية لا
يعترها ضعف ولا يتطرق إليها خلل ، ولأن ما أجاب به على أدلة
مخالفه أجوبة سديدة دامغة لا تثبت أمامها حججهم ، ولا يبقى
معها مدعاهم ، وبمراجعة « الموافقات » والاطلاع على ما فيها من
ذلك لا يسع المنصف إلا أن يقول : إن الحق مع الشاطبي .
وإذا ما أردنا أن نستعرض بعض الأمثلة للتفسير العلمي

(٣) انظر : الموافقات ج ٢ ص ٩٩ - ٨٢ .

حتى نقف على مبلغ تسلط هذه الفكرة على عقول أصحابها ،
وحتى يتضح لنا أنها فكرة تخرج بالقرآن الكريم عن اتجاهه السوى
الصحيح إلى اتجاه منحرف سقيم ، فأولى بنا أن نذكر بعض
ما ورد في ذلك عن المتقدمين ، وبعض ما ورد عن المتأخرين حتى
يتبين أن أصحاب هذه الفكرة يسرون على غمط واحد ، لا فرق
بين قدامى ومحدثين .

فمن أمثلة ما ورد عن المتقدمين : ما ذكره الجلال السيوطي
عن أبي الفضل المرسي من أن علم الهندسة موجود في قوله تعالى في
الآية : ٣٠ من سورة المرسلات : « انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث
شعب » قال : فإن فيه قاعدة هندسية ، وهي أن الشكل المثلث لا
ظل له .

ومنها ما ذكره السيوطي عن أبي الفضل المرسي أيضا من أن
الجبر والمقابلة قيل : أنها مأخوذان من أوائل السور ، فإن فيها
ذكر مدد وأعوام وأيام التواريخ لأمم سالفة ، وأن فيها بقاء هذه
الأمم ، وتاريخ مدة أيام الدنيا وما مضى وما بقى مضروب بعضها
في بعض .

ومنها ما ذكره السيوطي عن بعض العلماء : أنه استنبط أن
عمر النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث وستون سنة من قوله تعالى
في الآية : ١١ من سورة المنافقون : « ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء
أجلها » فإنها رأس ثلاث وستين سورة ، وعقبها بالتعابن ليظهر
التعابن في فقده (٤) .

(٤) انظر : الإكليل ص ٢ ، والإتقان ج ٢ ص ١٢٦ .

ومن أمثلة ما ورد عن المتأخرين : ما قاله المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبي في كتابه « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » من أن العلم كشف في هذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع كثيرة تعزى لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوروبا وأمريكا ، والمدقق في القرآن يجد أكثرها ورد التصريح أو التلميح به في القرآن منذ ثلاثة عشر قرناً ، وما بقيت مستورة في غشاء من الخفاء إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن ، شاهدة بأنه كلام رب لا يعلم الغيب سواه ، وذلك أنهم كشفوا أن مادة الكون هي الأثير ، وقد وصف القرآن بدء التكوين فقال : « ثم استوى إلى السماء وهي دخان »^(٥) .

وكشفوا أن التغير الكيماوى بل والمعنوى ناشئ عن تخالف نسبة المقادير والقرآن يقول : « وكل شئ عنده بمقدار »^(٦) . . . وكشفوا طريقة إمساك الظل ، أى التصوير الشمسى والقرآن يقول : « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً »^(٧) . . إلى آخر ما ذكره من ذلك .

ومن أمثلة ما ورد عن المتأخرين أيضاً ما قاله المرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل في كتابه « الإسلام والطب الحديث » عندما عرض لقوله تعالى في الآية ٢٢ من سورة البقرة :

(٥) فصلت : ١١ .

(٦) الرعد : ٨ .

(٧) الفرقان : ٤٥ .

« وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم » تحت عنوان « الحياة تحت ضوء القرآن » وفيه يقول :

« هذه الآية الكريمة معناها - والله أعلم - (تأمل قوله معناها) أن اللحوم والأسماك والألبان . . إلخ أفضل في التغذية من البقول والقمح والذرة ، وليست الأفضلية في مقدار المواد الزلالية الضرورية للجسم في كل نوع ، لأن هذا يجب أن لا يكون سبباً مهماً للأفضلية . . » ثم يعقد مقارنة بين بعض الأغذية وما فيها من نسبة المواد الزلالية ، ثم يقول « وقد اهتمت أخيراً لجنة الأبحاث بإنجلترا إلى أن قيمة المواد الزلالية تختلف في نوعها ، وفي المقدار منها الذي يمنع المواد الزلالية المكونة للأنسجة من أن تحترق ، ورأوا أن اللحوم بالنسبة للمواد الزلالية ونوعها لها قيمة أكثر من اللبن والذرة مثل البيان التالي :

لحوم ١٠٤ ، لبن بقر ١٠٠ ، أرز ٨٨ ، بطاطس ٧٩ ، فول ٧٠ ، دقيق ٤٠ ، ذرة ٣٠ .

ثم يقول : إن النتيجة التي لخصها القرآن الشريف (وأعجب لقوله لخصها القرآن الشريف) لم تظهر حقيقة ثابتة إلا منذ سنوات قليلة .

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما نجده في كتاب « الجواهر في تفسير القرآن الكريم » للمرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى - وهو أبرز من عرفناه من المحدثين يتعصب لهذا اللون في التفسير من قوله عند تفسير للآية ٦١ من سورة البقرة : « وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها

وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، قال أئستبدلون الذى هو أءنى بالذى هو خير . . . » : « الفوائد الطيبة فى هذه الآية » . . ثم يأخذ فى بيان ما أثبتة الطب الحديث من نظريات طيبة ، ويذكر مناهج أطباء أوربا فى انطب ، ثم يقول : أوليست هذه المناهج هى التى نحا نحوها القرآن ، أوليس قوله : « أئستبدلون الذى هو أءنى بالذى هو خير » رمزا لذلك ، كأنه يقول : المعيشة البدوية على المن والسلوى . . وهما الطعامان الخفيفان اللذان لا مرض يتبعهما ، مع الهواء النقى والحياة الحرة أفضل من حياة شقية فى المدن بأكل التوابل واللحم ، والإكثار من ألوان الطعام مع الذلة وجور الحكام والجبن وطمع الجيران من الممالك فتخطفكم على حين غفلة وأنتم لا تشعرون . بمثل هذا تفسر هذه الآيات ، بمثل هذا فليفهم المسلمون كتاب الله . . . » أه (ج ١ ص ٦٦ - ٦٧) .

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالى فى الآيات : ٦٧ وما بعدها من سورة البقرة : « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة . . . » الخ القصة . نجده يعقد بحثا فى عجائب القرآن وغرائبه فيذكر ما انطوت عليه هذه الآيات من عجائب ، ويذكر فيما يذكر علم تحضير الأرواح فيقول : « . . . وأما علم تحضير الأرواح فإنه من هذه الآية استخراجة . إن هذه الآية تتلى ، والمسلمون يؤمنون بها حتى ظهر علم الأرواح بأمرىكا أولا ، ثم بسائر أوربا ثانيا . . . » ثم ذكر نبذة طويلة عن مبدأ ظهور هذا العلم . . ثم قال : « ولما كانت السورة التى نحن بصددھا قد جاء فيها حياة العزير بعد موته ، وكذلك حمارة ، ومسألة الطير

وإبراهيم الخليل ، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فرارا من الطاعون فماتوا ثم أحياهم الله . . . وعلم الله أننا نعجز عن ذلك جعل قبل ذكر تلك الثلاثة في السورة ما يرمز إلى استحضار الأرواح في مسألة البقرة كأنه يقول : إذا قرأتم ما جاء عن بنى إسرائيل في إحياء الموتى في هذه السورة عند أواخرها فلا تياسوا من ذلك ، فإنى قد بدأت بذكر استحضار الأرواح فاستحضروها بطرقها المعروفة ، واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، ولكن ليكن المحضر ذا قلب نقى خالص ، على قدم الأنبياء والمرسلين ، كالعزيز وإبراهيم وموسى ، فهؤلاء لعلو نفوسهم أريتهم بالمعانية ، وأنا أمرت نبيكم أن يقتدى بهم ، فقلت : فبهذا هم اقتده . . . »
 أه (ج ١ ص ٦٦ - ٦٧) .

ولست أشك في أن مثل هذا التفسير خروج بالقرآن عن قصده وانحراف به عن هدفه ، فالقرآن لم ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم ليكون مصدراً لجوامع الطب ، وضوابط الفلك ، ونظريات الهندسة وقوانين الكيمياء ، وعالم الأرواح وكيفية تحضيرها . . . لا بل هو كتاب هداية يخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور ، وحينما يقول الله في شأنه : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » (٨) لا يقصد بذلك أنه حوى كل العلوم جملة وتفصيلا ، وإنما يريد أنه جعله مشتملا على أصول عامة لكل ما يهيم الإنسان معرفته والعمل به ، ليلبغ درجة الكمال جسدا وروحا ، وأنه ترك الباب مفتوحا لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة ، ليبينوا للناس جزئياتها بقدر ما أوتوا منها في الزمان الذى يعيشون فيه .

(٨) الأنعام : ٣٨

وإذا كان أرباب هذا الاتجاه العلمى فى التفسير يستندون إلى ما تناولته بعض آيات القرآن الكريم من حقائق الكون ومشاهده، ودعوة الله لهم بالنظر فى كتاب الكون وآياته التى بثها فى الأفاق وفى أنفسهم .. وإذا كانوا يستندون إلى مثل هذا فى دعواهم أن القرآن قد جمع علوم الأولين والآخرين، فهم مخطئون ولا شك، وذلك لأن تناول القرآن لحقائق الكون ومشاهده، ودعوته إلى للنظر فى ملكوت السموات والأرض وفى أنفسهم، لا يراد منه إلا رياضة وجدانات الناس وتوجيه عامتهم وخاصتهم إلى مكان العظة والعبرة، ولفتهم إلى آيات قدرة الله ودلائل وحدانيته، من جهة ما لهذه الآيات والمشاهد من روعة فى النفس وجلال فى القلب لا من جهة ما لها من دقائق النظريات وضوابط القوانين، فليس القرآن - كما قلنا - كتاب فلسفة أو طب أو هندسة. وليعلم أصحاب هذا الاتجاه فى التفسير أن القرآن غنى عن أن يعتر بمثل هذا التكلف الذى يوشك أن يخرج به عن هدفه الإنسانى الاجتماعى فى إصلاح الحياة ورياضة النفس والرجوع بها إلى الله تعالى.

وليعلم أصحاب هذا الاتجاه المنحرف فى تفسير كتاب الله أن من الخير لهم ولكتابتهم أن لا يسلكوا هذا المسلك فى تفسيره رغبة منهم فى إظهار إعجاز القرآن وصلاحيته للتمشى مع التطور الزمنى، وحسبهم أن لا يكون فى القرآن نص صريح يصادم حقيقة علمية ثابتة، وحسب القرآن أنه يمكن التوفيق بينه وبين ما وجد وما يجد من نظريات وقوانين علمية تقوم على أساس من الحق وتستند إلى أصل صحيح.

obeikandi.com

مع مدعى التجديد

● الاتجاه المنحرف في التفسير لبعض من يدعون التجديد من المحدثين :

منى الإسلام من زمن بعيد بأناس يكيّدون له ، ويعملون على هدمه بكل ما يستطيعون من وسائل الكيد وطرق الهدم ، وكان من أهم الأبواب التي طرّقوها ليصلوا بها إلى نواياهم السيئة : تأويلهم للقرآن الكريم على وجوه غير صحيحة تتنافى مع ما في القرآن من هداية ، وتناقض ما هو عليه من محجة بيضاء ، وتهدف إلى ما سولته لهم أنفسهم من نحل خاسرة وأهواء .

منى الإسلام بهذا من أيامه الأولى ، ومنى بمثل هذا في أحدث عصوره ، فظهر في هذا القرن أشخاص يتأولون القرآن على غير تأويله ، ويلوونه إلى ما يوافق شهواتهم ، ويقضى حاجات في نفوسهم ، فأدخلوا في تفسير القرآن آراء سخيّة ، ومزاعم باطلة ، تقبلها بعض المخدوعين من العامة وأشباه العامة ، ورفضها بكل إباء من حفظ الله عليهم دينهم وعقولهم .

ولقد اندفع هؤلاء النفر من المضللة إلى ما ذهبوا إليه من أفهام زائفة في القرآن بعوامل مختلفة : فمنهم من حسب أن التجديد ولو بتحريف كتاب الله تعالى سبب لظهوره وشهرته في المحيط العلمي ، فذهب يفسر كتاب الله تفسيراً لا تفرقه لغة القرآن

ولا يتفق مع قواعد الدين العامة

ومنهم من تلقى من العلم حظا يسيرا لا يرقى به إلى مستوى العلماء . . ولكنه اغتر بما لديه فحسب أنه بلغ مبلغ الراسخين في العلم ، ونسى أنه قل في علم اللغة نصيبه ، وخف في علم الشريعة وزنه ، فراح ينظر في كتاب الله نظرة حرة لا تتقيد بأى أصل من أصول التفسير ، ثم أخذ يهذى بأفكار فاسدة تتنافى مع ما قرره علماء اللغة وأئمة الدين ، ولأول نظرة يتضح لمن يطلع عليها أنها لا تقوم على حجة ولا ترتكز على دليل .

ولقد حسب هؤلاء وهؤلاء أنهم أرضوا ضمائرهم وأنصفوا البحث الحر ، وخلصوا القرآن من جمود المفسرين الذى وقف - كما يزعمون - حجر عثرة في سبيل من أرادوا الدخول في الإسلام .

ولو ذهبنا نستعرض أقوال هؤلاء النفر في التفسير ، لخرجنا بكثير من الأمثلة الدالة على إنحرافهم وتحريفهم لكتاب الله سبحانه .

فمن ذلك ما نجده لبعض من دفعهم حب التجديد إلى أن يسايروا روح الإلحاد ، ويجاروا من يتهمون الشريعة الإسلامية بالقسوة في أحكامها وحدودها ، من تأويله لآيات الحدود على غير تأويلها . فحمل الأمر فيها على الإباحة ، وجعل الحدود مفوضة إلى ولى الأمر ، إن شاء أقامها ، وإن شاء لم يقمها ، وذلك حيث عرض في مقال كتبه تحت عنوان « التشريع المصرى وصلته بالفقه الإسلامى »^(١) فقال بعد مقدمة طويلة : « . . . ولكن

(١) نشر هذا المقال في السياسة الأسبوعية ص ٦ من العدد السادس من السنة السادسة (٢٠ فبراير ١٩٣٧) .

يبقى بعد هذا في تلك الحدود ذلك الأمر الذي سنثبته فيها ،
 ليبحث في هدوء وسكون ، فقد نصل فيه إلى تذييل تلك العقبة
 التي تقوم في سبيل الأخذ بالتشريع الإسلامي من ناحية تلك
 الحدود بوجه آخر جديد . . وسأقتصر في ذلك - الآن - على ذكر
 ما ورد في تلك الحدود من النصوص القرآنية ، وذلك قوله تعالى
 في حد السرقة : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما
 كسبا نكالاً من الله ، والله عزيز حكيم . فمن تاب من بعد ظلمه
 وأصلح فإن الله يتوب عليه ، إن الله غفور رحيم » (٢) .

وقوله تعالى في حد الزنا : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد
 منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم
 تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من
 المؤمنين » (٣) فهل لنا أن نجتهد في الأمر الوارد في حد السرقة وهو
 قوله تعالى : « فاقطعوا » والأمر الوارد في حد الزنا وهو قوله
 تعالى : « فاجلدوا » فنجعل كلا منهما للإباحة لا للوجوب ؟
 ويكون الأمر فيهما مثل الأمر في قوله تعالى : « يا بني آدم خذوا
 زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب
 المسرفين » (٤) فلا يكون قطع يد السارق حداً مفروضاً لا يجوز
 العدول عنه في بعض الحالات إلى عقوبات أخرى رادعة ، ويكون
 شأنه في ذلك شأن كل المباحات التي تخضع لتصرفات ولى الأمر ،
 وتقبل التأثير بظروف كل زمان ومكان ، وهكذا الأمر في حد الزنا

(٢) النور : ٢ .

(٣) المائدة : ٣٨ ، ٣٩ .

(٤) الأعراف : ٣١ .

سواء أكان رجماً أم جلداً ، مع مراعاة أن الرجم في الزنا لا يقول به فقهاء الخوارج لعدم النص عليه في القرآن الكريم ؟ ، وهل لنا أن نذلل بهذا عقبة من العقبات التي تقوم في سبيل الأخذ بالتشريع الإسلامي مع أننا في هذه الحالة لا نكون قد أبطلنا نصاً ، ولا ألغينا حداً ، وإنما وسعنا الأمر توسيعاً يليق بما امتازت به الشريعة الإسلامية من المرونة والصلاحية لكل زمان ومكان ، وبما عرف منها من إثارة التيسير على التعسير ، والتخفيف على التشديد ، .. » أهـ .

فأنت ترى من هذا المقال مقدار ما وصل إليه الكاتب من الجرأة على كتاب الله ، إذ أول آية السرقة وآية الزنا تأويلاً غير مقبول ، واتجه في فهمه لصيغة الأمر فيهما إتجاهاً منحرفاً لا يقوله إلا من أهدر دلائل القرآن والسنة ، ومن له أدنى دراية بفهم النصوص والناظر في آية السرقة وآية الزنا ، لا يمكن أن يفهم منهما إلا أن الأمر فيهما للوجوب ، وليس لأحد أن يعدل عن ذلك مطلقاً ، وذلك لأن بناء الأمر بالقطع في آية السرقة على قوله : « والسارق والسارقة » وبناء الأمر بالجلد في آية الزنا على قوله : « الزانية والزاني » بصرفه عن احتمال الإباحة إلى الوجوب ، وهذا لأن تعليق الحكم على شخص موصوف بوصف يؤذن بأن مقتضى للحكم هو ذلك الوصف الذي قام بالشخص ، وإذا كان ذلك الوصف جنائياً مثل السرقة والزنا ، ووضع الشارع لهما حكماً في صيغة الأمر ولم يذكر حكماً غيره ، لا يصح أن يقال : إن هذا الأمر محتمل للإباحة كما احتملها الأمر في قوله : « خذوا زينتكم عند كل مسجد » .. الآية .

ثم إن قوله تعالى : في آية السرقة : « جزاء بما كسبا نكالاً من الله » وقوله في آية الزنا : « ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله » وقوله : « وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » يؤكد أن الأمر في الآيتين للوجوب لا للإباحة .

على أن هناك من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم القولية والعملية ما يؤكد كون الأمر للوجوب في الآيتين . . فهل يجوز بعد هذا كله أن يتهجم على آيات الحدود متهجم مغرض بمثل هذا التأويل الذي تنكره اللغة ، ولا تقره السنة ، ولا يتفق وحكمة التشريع !؟

ومن هذا التفسير المنحرف أيضا ما جاء في كتاب « الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن » ، للشيخ أبي زيد الدمهورى ، وقد أحدث هذا الكتاب ضجة كبرى في المحيط العلمى ، وثورة ساخطة من شيوخ الأزهر الشريف على مؤلفه ، وانتهى الأمر بمصادرة الكتاب والحكم على صاحبه بالزيف والضلال .

ومن أمثلة ما جاء في هذا التفسير ما يلي :

عندا تعرض لقوله تعالى في الآية ٤٩ من سورة آل عمران ، في شأن عيسى عليه السلام : « . . . أنى قد جئتمكم بأية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، وأبرىء الأكمه والأبرص وأحى الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تآكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » نجده يقول ما نصه : « كهيئة الطير » يفيدك

التمثيل لإخراج الناس من ثقل الجهالة وظلماتها إلى خفة العلم ونوره : « الأكمه » من ليس عنده نظر : « الأبرص » المتلون بما يشوه الفطرة ، فهل عيسى يبرىء هذا بمعنى أنه يكمل التكوين الجسماني بالأعمال الطيبة ؟ أم بمعنى أنه يكمل التكوين الروحي والفكري . بالهداية الدينية ؟ : « في بيوتكم » يعلمكم التدبير المنزلي . أهـ (ص ٤٥) .

وإذا كان المؤلف قد تردد في معنى إبراء الأكمه والأبرص هنا بين تكميل التكوين الجسماني بالأعمال الطيبة ، وتكميل التكوين الروحي بالهداية الدينية ، فإنه ليس تردد الشاك في أى الأمرين كان ، وإنما هو يبدو منه في وضوح ميله إلى أن المراد هو التكوين الروحي لا غير ، ولقد صرح بذلك عندما عرض لقوله تعالى في الآية ١١٠ من سورة المائدة : « . . . وإذ نخلق من الطين كهيئة الطير بإذن فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذن » . . الخ ، وذلك حيث يقول : « . . من هذا تعرف أن عيسى نبي أرسله الله إلى بني إسرائيل ليشفى نفوسهم ، ويحى موات قلوبهم ، فأيته في دعوته وسيرته وهدايته ، عاش ومات كغيره من الأنبياء في بشريته ، فلم يكن خارقاً في سنته ، ولا ممتازاً بما يدعو إلى ألوهيته وعبادته » أهـ (ص ٩٧) .

وعندما عرض لقوله تعالى في الآية ٧٩ من سورة الأنبياء : « . . وسخرنا مع داوود الجبال يسبحن والطير ، وكنا فاعلين » يقول ما نصه : « يسبحن » يعبر عما تظهره الجبال من المعادن التي كان يسخرها داوود في صناعته الحربية ، « والطير » : يطلق على

كل ذى جناح ، وكل سريع السير من الخيل والقطارات البخارية والطائرات الهوائية « أه (ص ٢٥٧) .

وعندما عرض لقوله تعالى في الآية ٨١ من سورة الأنبياء « ... ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها . . . » يقول ما نصه : « تجرى بأمره الآن تجرى بأمر الدول الأوروبية وإشاراتنا في التلغراف والتليفونات الهوائية » أه (ص ٢٥٧) .

وليس من شك في أن هذا ومثله مما قاله في معجزات الأنبياء إبطال لها من أساسها وفي بعض كلامه ما يصرح بأن بعض ما ذكره القرآن منها - على تأويله الذي تأوله - حاصل اليوم في أيدي دول الغرب التي استغلت الريح وسخرته في كثير من وسائل مراسلاتها ومواصلاتها . وهذا بلا شك خروج صريح عن مدلولات النصوص القرآنية ، وإلحاد في آيات الله سبحانه .

وفي الرجوع إلى الكتاب^(٥) ما يكفيننا عن سرد ما للمؤلف من ترهات وضلالات ، وفي الاطلاع على قرار اللجنة الأزهرية التي ألفت للرد عليه ما يغنيننا عن تزييف ترهاته وإبطال ضلالاته ، وجزى الله شيوخنا الأجلة وعلماءنا الأعلام خير الجزاء على ما بذلوه من الدفاع عن دينهم ، والذب عن كتاب ربهم .
والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ،
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(٥) الكتاب موجود في دار الكتب المصرية ويمكن استعارته بإذن خاص لأنه مصادر ومنوع تداوله .

obeikandi.com

وبعد . . . فلهذا الكتاب قصة

لقد نشرت وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمملكة الأردنية الهاشمية كتابا بعنوان « بدع التفاسير في الماضي والحاضر » للدكتور رمزي نعناعة

وقد اطلعت على هذا الكتاب ، فأدهشني أنه بكل ما يشتمل عليه من مادة علمية ، وبكل ما فيه من تنسيق ، وترتيب ، ونقط ، وفواصل ، وعلامات استفهام ، وتعجب وتأثر ، نسخة طبق الأصل - وكأنها مصورة - من بحث كتبته ونسخته على الآلة الكاتبة سنة ١٩٦٦ تحت عنوان : « الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم : دوافعها ودفعها » .

وكنت أعرت نسخة من هذا البحث للدكتور رمزي نعناعة ليرجع إليها ويستعين بها وهو يعد رسالته للدكتوراة التي كنت مشرفا عليه في تحضيرها ، وقد تبين لي الآن أنه نسخ بحثي قبل أن يعيده إلي ، ويظهر أنه - في عجلة النسخ - نسي مقالة بأكملها ، هي : الاتجاه المنحرف في تفسير الصوفية ، فجاء كتابه الذي يدعيه خاليا منها .

ولا أريد أن أسرد كل الأدلة التي تثبت صدق ما أقول ، ولكنني أقصر الآن على بعضها :

١ - في هامش ص ٢١٤ من الرسالة التي تقدم بها الدكتور

رمزى نعناعة للحصول على الدكتوراة وعنوانها «الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير» - نسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة وتوجد بمكتبة كلية أصول الدين بالقاهرة - جعل الدكتور رمزى من مراجعه الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم وقال بالنص : « انظر الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم ص ١٩ نسخة مخطوطة للشيخ الذهبى » .

٢ - قدم الدكتور رمزى كتابه بنفس ما قدمت به بحثى ، فذكر - كما ذكرت - أن الكتاب يشتمل على مقدمة وتسع مقالات ، وغفل عن أنه لم يذكر سوى ثمان مقالات ، وذلك يدل على أنه لم يحاول أن يبذل جهداً قط أكثر من مجرد النسخ ، وإلا ما وقع في هذا المأزق . وقد سلمت المقالة التاسعة^(١) لمجلة الوعي الإسلامى لنشرها كدليل على ما أقول .

٣ - أن بحثى الذى انتحله الدكتور رمزى لنفسه أخذت معظم مادته العلمية بأسلوبها من كتابى «التفسير والمفسرون» المطبوع سنة ١٩٦٢ ، ولم أرد أن أنشر البحث على هذا النحو ، لأنه كان فى تقديرى أن أعيد مراجعته وأستكمل موضوعه ، ثم أنشره بعد ذلك منقحا مستوعبا إذا وفقنى الله لذلك وأعانى عليه .

ولأن بحثى لم يطبع ولم ينشر ، ويعلم الدكتور رمزى أنى لا أنوى نشره على هذه الحال ، تجراً فانتحله لنفسه ، وخذع وزارة الأوقاف الأردنية فقامت بطبعه ونشره ، واستحل كل هذا الغش

(١) ترتيبها فى بحثى : السابعة

والخداع وهو مطمئن إلى أن أمره سوف لا ينكشف ، ولكنه كان سيء الحظ ، فالبحث - كما قلت - أخذت معظمه من كتابي « التفسير والمفسرون » ولو كلف الدكتور رمزي نفسه أن يرجع إليه ما وقع في هذه الورطة التي لا خلاص له منها ! .

٤ - في بحثي خطأ تنبعت له فيما بعد : خطأ في النقل وقع مني سهواً ، وذلك عند الكلام عن تفسير القرآن للسيد عبد الله العلوي ، فقد ذكرت أنه توفي سنة ١١٨٨ هجرية والصواب أنه ولد سنة ١١٨٨ هـ وتوفي سنة ١٢٤٢ هـ وقد تابعني الدكتور رمزي على هذا الخطأ في ص ٥٧ من « بدع التفاسير » ولو كلف الدكتور رمزي نفسه أن يرجع إلى الأصل الذي أخذت منه وهو « التفسير والمفسرون » ج ٢ ص ١٨٦ ما وقع فيها وقعت أنا فيه .

وخطأ آخر فكري تابعني الدكتور رمزي عليه في ص (٦٨) - (٦٩) من « بدع التفاسير » ، وقد يدعى - مكابرة - أن الخطأ وقع منه وأنا الذي تابعته عليه ، ولكن هذا الخطأ - لسوء حظه أيضاً - موجود في كتابي « التفسير والمفسرون » وعلى وجه التحديد في ص (٣٢٢) من الجزء الثاني ، عند الكلام عن كتاب « هميان الزاد إلى دار المعاد » للمفسر الاباضي : محمد بن يوسف أطفيش ، ولعله يستطيع أن يهتدى إليه بعد هذا التحديد .

٥ - ذكرت في بحثي بعض الآراء المنحرفة في التفسير دون أن أنسبها لقائلها ، وذلك لاعتبارات خاصة اقتضت ذلك في حينه ، وقد نقلها هو - أيضاً - دون عزو منه ، وليس لديه سبب يقتضي إهمال العزو ، اللهم إلا عدم معرفته لأسمائهم ، وإذا كان يعرفها

فليسارح - مشكورا - بذكرها .

٦ - عنونت لبحثى بعنوان « الاتجاهات المنحرفة فى تفسير القرآن الكريم : دوافعها ودفعتها » وقدمته للقراء بمقدمة تتلاءم مع العنوان ، وعنونت لكل مقالة بعنوان ملائم أيضا ، فجاء الدكتور رمزى بكل سذاجة فغير عنوان البحث إلى « بدع التفسير فى الماضى والحاضر » وأبقى - فى بلاهة علمية - المقدمة^(٢) وعناوين المقالات على ما هى عليه ، ولولا هذه البلاهة لقدم الكتاب وعنون لمقالاته بما يتلاءم مع اسمه الذى اختاره له ، فكان يقول ، مثلا : بدع التفسير عند المعتزلة . . . بدع التفسير عند الخوارج . . وهكذا !

٧ - ليس للدكتور رمزى من عمل فى كتابه الذى يدعيه إلا عبارة واحدة وضعها فى هامش فى ص ٨٢ يحيل فيها على مقال للدكتور محمد سعيد رمضان البوطى ، نشرته مجلة الوعى الإسلامى فى العدد ٦٢ سنة ١٩٧٠ ، وليته لم يكلف نفسه كتابة هذا الهامش الذى هو كل مجهوده فى كتاب « بدع التفسير » والذى أرى أنه أوقعه فى ورطة لا أظنه يحسن الخلاص منها :

ذلك أنه يشير بهذا الهامش إلى مقالات الدكتور مصطفى محمود التى نشرها فى مجلة « صباح الخير » المصرية تحت عنوان « محاولة لتفسير عصري للقرآن » وهو يرمى من وراء هذا إلى أن يوهم القراء بأن الكتاب - فى عالم التأليف - جديد كل الجدة ، حتى أنه

(٢) عنون الدكتور رمزى للمقدمة بعنوان « بيان من المؤلف » وليس فيه كلمة واحدة من مادة « بدع » بل ولا تكاد توجد كلمة تدور حول هذه المددة فى كتاب « بدع التفسير » إلا نادرا .

ليتناول أحدث ما قيل من بدع التفسير! .. وأقول له : ليتك لم تورط نفسك وتلقى بها في هذا المأزق الحرج ، فعنوان الكتاب « بدع التفاسير في الماضي والحاضر » ، وكنا ننتظر منك - لو كنت صادقاً مع نفسك ومع قرائك إن كان لك قراء - أن تعرض لأحدث بدع التفسير - وما أكثرها - لا أن تكتفى بنقل آراء نقلتها أنا عن قائلها في كتاب « التفسير والمفسرون » من ربيع قرن مضى يوم أن تقدمت به للحصول على شهادة العالمية من درجة أستاذ في علوم القرآن الكريم .

وأقل ما كان ينتظر منك : أن تعرض لآراء الدكتور مصطفى محمود ، وأنت حديث عهد بها وعلى ذكر منها ، ثم تعقب عليها بما يبين زيفها وفسادها ، وبهذا تكون قد جئتنا بجديد يسرنا أن تكون أنت صاحبه .

... وبعد ، فأصل بحثي بين يدي الآن في الكويت ، ومنه نسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة في مكتبي الخاصة بالقاهرة ، وإذا لم يكن ميسوراً لكل قارئ أن يرجع إلى بحثي الذي لم ينشر ، فمن الميسور جداً أن يرجع إلى كتابي « التفسير والمفسرون » ويقارن ما فيه بما في كتاب « بدع التفاسير » في المواضيع الآتية :

الموضوع. وصادر	أرقام الصفحات	أرقامها في التفسير
بعض فقراته	في بدع التفاسير	والمفسرون
المقدمة - مرحلة الرواية :		

نزل القرآن الكريم .. الخ	١٢ - ١٣	٣٢ - ٣٣ ج ١
ولقد اختلف العلماء .. الخ	١٣	٤٩ ج ١
والذي تميل إليه النفس .. الخ	١٤	٥٣ - ٥٤ - ١

الموضوع وصدر
بعض فقراته

أرقام الصفحات
في بدع التفاسير والمفسرون

مرحلة التدوين .. ١٦ - ١٩

١٤١ - ١٤٩ ج ١

وإذا أردنا أن نرجع الخطأ . الخ ٢١ - ٢٥

٢٨١ - ٢٨٤ ج ١

المقالة الأولى :

وإذا نحن أجلنا النظر .. الخ ٢٧ - ٢٨

١٦٧ - ١٦٨ ج ١

لا . فقد جاء عهد التابعين .. الخ ٢٠

الفقرة الأخيرة من

١٧٥ ج ١

المقالة الثانية :

كتبها في بحثي ولم يكن لها
أصل في «التفسير والمفسرون».

المقالة الثالثة :

فمن ذلك ما نقله ابن قتيبة . الخ ٤٥ - ٤٧

٣٧٩ - ٣٨٠ ج ١

ومن الأمثلة التي ترجع إلى الجهل

٢٢٦ ج ١

بتصريف الكلمة .. الخ ٤٧ - ٤٨

مع الهامش رقم ٢

المقالة الرابعة :

فمن ذلك أنهم فسروا .. الخ ٥٠ - ٥١

٤٠٥ - ٤٤٦٤٠٦ ج ١

ومن أمثلة الاتجاه المنحرف

٣٩٦ ج ١

للمعتزلة .. الخ ٥٣

١٠٦

الموضوع وصدر
بعض فقراته

أرقام الصفحات
في بدع التفاسير

أرقامها في التفسير
والمفسرون

المقالة الخامسة :

٨ - ٩ ج ٢	٥٦ - ٥٧	ولالإمامية الاثني عشرية تعاليم ..
		فمثلا كتاب تفسير القرآن للسيد
١٨٨ - ج ٢	٥٧ - ٥٨	عبدالله العلوي .. الخ
١١٠ ج ٢	٥٩	وفي تفسير الطبرسي ... الخ
		وفي الصافي لملا محسن الكاشي ..
١٧٣ ج ٢	٦٢	الخ
		وفي التفسير المنسوب الى الحسن
٩٦ ج ٢	٦٢	العسكري .. الخ
٧٣ ج ٢	٦٣	ومما لا ينقضى منه العجب . الخ

المقالة السادسة :

٣٠١ - ٣٠٢ ج ٢	٦٥	ودب الخلاف بين الخوارج . الخ
		والذي يقرأ ما ينقل عن الخوارج
٣٠٥ - ٣٠٧ ج ٢	٦٦ - ٦٧	.. الخ
		لا .. فلا يسع الذي يعرف سياق
الفقرة الأخيرة من	٦٧	هذه الآيات .. الخ
٣٠٧ ج ٢		جاء في كتاب التفسير المسمى
٣٣٢ - ج ٢	٦٨ - ٦٩	هميان الزاد .. الخ
٣٢٢ - ٣٢٣ ج ٢	٧١	ثم ان صاحب هميان الزاد ..

أرقام الصفحات
في بدع التفاسير
وأرقامها في التفسير
والمفسرون

رضوع وصدر
بعض فقراته

المقالة السابعة :

١٤٠ - ١٤١ ج ٣	٧٣ - ٧٤	وإذا ما رجعنا إلى كتاب الإحياء للغزالي .. الخ
١٥٤ ج ٣	٧٥	على أن هذه الفكرة لقيت .. الخ
١٤٧ - ١٤٨ ج ٣	٧٦	فمن أمثلة ما ورد عن المتقدمين .. الخ
١٦٤ ج ٣	٧٧	ومن أمثلة ما ورد عن المتأخرين .. الخ
١٦٥ ج ٣	٧٧	وكشفوا عن التغيير الكيمائي الخ
١٦٦ ج ٣	٧٧	وكشفوا عن طريقة إمساك الظل .. الخ

المقالة الثامنة :

١٨٨ - ١٨٩ ج ٣	٨٢ - ٨٣	مبنى الإسلام من زمن بعيد .. الخ
١٩٤ - ١٩٦ ج ٣	٨٣ - ٨٥	فمن ذلك ما نجده .. الخ
١٩٦ ج ٣	٨٥ - ٨٦	فأنت ترى من هذا المقال .. الخ
٢٠١ - ٢٠٢ ج ٣	٨٦ - ٨٨	ومن أمثلة ما جاء في هذا التفسير .. الخ
الفقرة الثالثة ٢٠٤ ج ٣	٨٨	وعندما عرض لقوله تعالى ..

وإذا كان بحثي الذي سرقه الدكتور رمزي وادعاه لنفسه قد
طبعه في ثمانين صفحة ، فإن ما نقلته منه عن كتابي «التفسير
والمفسرون» كأساس أبني عليه ، قد وصل الى نحو ستين
صفحة ، والباقي هو الذي كنت زدتَه تمهيدا لتكملته ونشره ،
وحالت ظروف وجودي في الكويت دون ذلك ، وهذه حقيقة لا
يعلمها الدكتور رمزي ولو علمها لما أقدم على نشر هذا البحث
منسوبا لنفسه .

محمد حسين الذهبي

* * *

obeikandi.com

محتويات الكتاب

الصفحة

٣	تقديم : للأستاذ محمد عبدالله السمان
٧	مقدمة المؤلف
٩	تمهيد
٩	المبحث الأول : تدرج التفسير في مرحلتيه
	المبحث الثاني : في مبدأ ظهور الاتجاهات المنحرفة في
١٨	التفسير والعوامل التي أدت إليها
٢٥	مع الإخباريين والقصاص
٢٥	الاتجاه المنحرف في التفسير للإخباريين والقصاص
٣٩	مع أصحاب المذاهب النحوية
٣٩	الاتجاه المنحرف في التفسير لبعض أصحاب المذاهب النحوية
٤٣	الاتجاه المنحرف في التفسير لبعض من يجهلون قواعد العربية
٤٧	مع المعتزلة والشيعة
٤٧	الاتجاه المنحرف في التفسير للمعتزلة
٥٣	الاتجاه المنحرف في التفسير للشيعة (الإمامية الإثني عشرية)
٦٣	مع الخوارج والصوفية
٦٣	الاتجاه المنحرف في التفسير للخوارج
٧١	الاتجاه المنحرف في التفسير للصوفية
٨٣	مع أصحاب التفسير العلمي

٨٣	جميع العلوم الكونية جملة وتفصيلا
٩٣	مع مدعى التجديد
٩٣	الاتجاه المنحرف في التفسير لبعض من يدعون التجديد
٩٣	من المحدثين
١٠١	وبعد .. فلهذا الكتاب قصة
١١١	محتويات الكتاب

* * *

رقم الايداع - ٨٥ / ٥٥٢٦
الترقيم الدولي ٣ - ٠٦٠ - ٣٠٧ - ٩٧٧